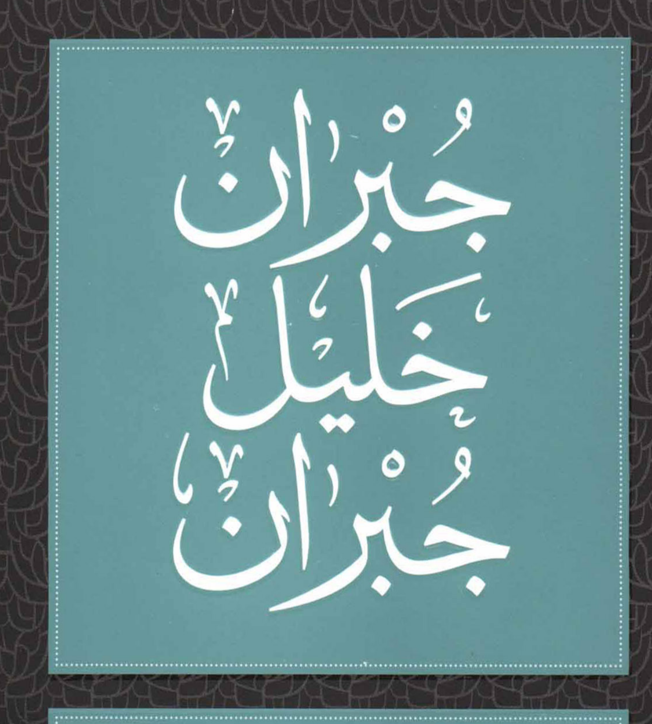


النبيّ

— ترجمة ميخائيل نعيمه —

مكتبة
الفكر الجديد



نوفل


مكتبة
الفكر الجديد

جبران خليل جبران

النبيّ




مكتبة
الفكر الجديد



النبيّ

دراسة وتحليل الدكتورة نازك سابا يارد





جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2013 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة السابعة، 2015

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من
الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية
أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على
أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول
على إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: معجون
طباعة: مطابع روحانا الشمالي

ر.د.م.ك.: 978-9953-26-917-7



مقدّمة عامّة

النبيّ: تعريف وتحليل

إنّ كتاب «النبيّ» أشـــهر كتب جبران. نُشـــر «النبيّ» ســـنة 1923، وقـــد أُعيد طبع النصّ الإنكليزيّ مـــرارًا، وتُرجم إلى أربعين لغة. كان الأرشـــمندريت أنطونيوس بشـــير أوّل من نقلـــه إلى العربيّة، ســـنة 1926. ومن أفضل الترجمات التي ظهرت بعد ذلك ترجمة ميخائيل نعيمه التي اعتمدناها في دراستنا هذه.

مهّد «الســـابق» لكتـــاب «النبيّ». كان آخر ما قاله «الســـابق»: «ســـتُبعث من رمادنا محبّة أقوى من محبّتنا، وســـتضحك في نور الشمس، وستكون خالدة». وبذلك أشار جبران إلى «النبيّ» الذي ســـيولد من «الســـابق». وكان في نيّة جبران أن يكون «النبيّ» أوّل ثلاثية: «النبيّ» و«حديقة النبيّ» و«موت النبيّ». ظهر الكتاب الثاني بعد وفاة جبران، أمّا الثالث فلم يصلنا منه إلّا جملة واحدة.

أمّا شـــهرة «النبيّ» فمردّها إلى مضمون الكتاب: إنّه اجتماعيّ مثاليّ وتأمّليّ فلســـفيّ معًـــا، لا تثقله قيود المنطـــق، ويحبّبه إلى



القارئ أسلوبه الشعريّ الصافي. لم يتناول جبران في كتابه هذا آراء فلسفيّة ليحلّلها تحليلًا منطقيًّا، «وإنّما أصبحت الفكرة عاطفة، وتعبيرًا عن حالة نفسيّة، على غرار ما نجد في الأناشيد الصوفيّة... فالأدب لا يحاول أن يقنع، بل أن يخلق جوًّا، وأن ينقل إلى القارئ حالة عاشها فعلًا»[1]. فضلًا عن أنّ جبران رفع أحطّ الأعمال اليوميّة إلى مستوى السموّ الصوفيّ، إذ ألبس الأكل والشرب والبيوت والملابس والأعمال كلّها حلّة روحيّة رفيعة. أوَلَمْ يقل إنّ «الدين كلّ ما نعمله وما نفكّر به» (ص. 109) وإن «لكم في حياتكم اليوميّة لهيكلًا ودينًا» (ص. 110).

وعليه نجد أنّ الكتاب ذو مضمون اجتماعيّ وفلسفيّ معًا. يستهلّه جبران بمقدّمة تصوّر ألم النبيّ، أو المصطفى، لمفارقة أهل مدينة أورفليس، مع أنّه شديد اللهفة إلى مسقط رأسه إذ أتت سفينته لتنقله إليه. وحين تجمّع الناس حوله لتوديعه طلبوا منه أن يعطيهم بعض حكمته. فكانت فصول الكتاب الستّة العشرون مواعظه في كلّ ما انكشف له «من شؤون الفسحة التي تمتدّ ما بين الولادة والموت»، كالحبّ والزواج والأولاد والعطاء والأكل والشرب والعمل والحزن والفرح والتجارة والجريمة والعقاب والقانون والصلاة والصداقة والحريّة، وغير ذلك. أمّا الإطار العام

---

[1] A.G. Karam, *La vie et l'œuvre littéraire de Gibran Kalil Gibran*, Dar An-Nahar Beyrouth 1981, p. 170.



الذي يضمّ هذه الفصول فرمزيّ: مدينة أورفليس هي هذه الدنيا، وسكّانها هم البشر، والجزيرة التي يعود إليها «النبيّ» هي الحياة الأخرى، تنقله إليها سفينة الموت، لكي ينضمّ إلى «البحر الأعظم» رمز وحدة الوجود، أو الروح الكلّي، الذي سينفصل عنه ثانية في ولادة جديدة، كما بيّن حين ودّع سكّان أورفليس في خاتمة الكتاب.

حين بحث النبيّ في شؤون المجتمع والحياة تناولها من وجهتها المثالية وكأنّه أراد أن يزيّن للناس مثلًا أعلى يحثُّهم على تحقيقه قدر الإمكان. بدأ مواعظه بالتحدُّث عن الحبّ لأنّه أساس الحياة واستمرارها، ولذلك دعانا إلى اتّباع صوت الحبّ، مبيّنًا أنّ الحبّ يقرّب ما بين البشر، ويوحّدهم (ص. 45). ولكن علينا أن نقبل الألم الذي يرافق كلّ حبّ حقيقي، فالحبّ الصادق العميق يسبّب السعادة، إلّا أنّه سبب قلق وعذاب وهمّ أيضًا: «إذا الحبّ أومأ إليكم فاتبعوه حتّى وإن كانت مسالكه وعرة وكثيرة المزالق...

ومثلما يكون الحبّ لكم تاجًا، يكون لكم صليبًا» (ص. 44).

ويتبع الزواج الحبّ، والزواج الذي يتكلّم عنه النبيّ هو الزواج المثاليّ، أساسه محبّة لا تعرف الغيرة، ولا يقيّد الزوجين: «أحبّوا بعضكم بعضًا ولكن حذار أن تجعلوا من الحبّ قيدًا» (ص. 47). إنّه زواج قائم على التفاهم التامّ، والتعاون والمساواة والاستقلال، فلا يسيطر أحد الزوجين على الآخر أو يطغى على



شخصيّته «ليملأ الواحد منكم كأس رفيقه، ولكن دون أن يشرب الإثنان من كأس واحدة» (ص. 47).

وهذه المثالية تميّز كلامه على البيع والشراء أيضًا، إذ يريد أن يقوما على مبادلة خيرات الأرض «بروح المحبّة والإنصاف»، فيستغني الناس عن الوسطاء، أو التجّار، الذين يتولّون البيع والشراء في النظام الرأسمالي، ممّا «قاد البعض إلى النهم، وجرّ البعض إلى الجوع» (ص. 69). وجبران مثاليّ أيضًا حين يتناول العلاقة بين الأولاد والوالدين. فهو يعتبر الأهل ممثّلي الماضي البالي بتقاليده وقيَمه وقوانينه، فيما يمثّل الأولاد الغد والتطوُّر، ولهذا يأبى أن يفرض الأهل أفكارهم وقيَمهم على أولادهم (ص. 49-50).

ونستنتج من ذلك نظرة جبران المتفائلة إلى المجتمع، إذ يعتبره في تطوُّر مستمرّ نحو مستقبل أفضل. وفي فصل «القانون» يوحي بواسطة صوَر رمزيّة أنّ الزمان يتخطّى القوانين ولذلك ينبغي أن تتغيّر أبدًا إذا أردنا أن تحقّق العدالة (ص. 76). وفي فصل «الثياب» يهاجم التقاليد والقيَم القديمة لأنّها بالية (ص. 67-68).

وعليه لا يكون المجتمع جامدًا، في رأي جبران، وإنّما ديناميكي حيّ متحرّك، يسهم كلّ فرد من أفراده في تغييره وتطويره. وبذلك يصبح العمل أساس الحياة، ولا يكون لعنة ونكبة (ص. 57) كما قالت التوراة، حين بيّنت أنّ الله فرض العمل على آدم وحوّاء عقابًا بعد طردهما من الجنّة. فنبيّ جبران يؤكّد أنّ مجد الإنسان مبنيّ



على منجزاته، وكرامته على إسـهامه الفعليّ في التاريخ: «أمّا أخو البطالة فغريب عن الأرض وفصولها، وليس هو من موكب الحياة السائر بجلال عظيم وطواعية أبيّة نحو اللامتناهي» (ص. 57).

ولذلك لا يبقى هنـاك فارق بين عمل وعمل (ص. 58-59)، فالأعمال كلّها متساوية ما دامت تسهم في بناء المجتمع وتطويره.

وينتج عن ذلـك أنّ جبران يعتبر المجتمـع وحدة متكاملة، يشـكّل الفرد فيها جزءًا لا يتجزّأ من الكلّ. ولذلك أكّد في فصل «الجريمة والعقاب» مسـؤولية المجتمع بكامله عن الجريمة التي اقترفها فرد متّهم بالذنب:

«إنّ القتيل ليس بغير مسؤول عن قتله،
وإنّ المسلوب ليس بغير ملوم في سلبه،
وإنّ الصدّيق ليس بريئًا من صنائع الشرير» (ص. 73).

كذلك بيّن في فصـل «الحريّة» أنّ الناس جميعًا مسـؤولون عن ظلم طاغية يحكمهـم: «إن يكن مبتغاكم أن تنزلوا طاغية عن عرشـه، فاعملوا أوّلًا على تحطيم ذلك العرش الذي أقمتموه له في قلوبكم» (ص. 80). فيطالعنا من هذين الفصلين ومن غيرهما، تأكيد جبران مسـؤوليّة الإنسـان في المجتمع والحياة والتاريخ. فالتاريخ من صنع الإنسان، وكلّ إنسان مسؤول عن تغييره وتطويره.

وليس المجتمع وحده وحدة متّصلـة العرى في نظر جبران، وإنّما التاريخ والحضارة أيضًا. فهو يرى أنّ اللحظة الحاضرة تجمع



كلّ مواريث الأرض، حتّى قبل أن تكون الأرض. فالثمرة الموجودة لا تؤرّخ إلّا بتاريخ الدهور التي تعاقبت سلفًا فكوّنت الثمرة:

«إنّ أفكاركم وكلماتي لأمواج من ذاكرة مختومة انطبعت فيها سجلّات أمسنا وسجلّات الأيّام السحيقة في القدم عندما لم يكن للأرض علم بنا ولا بذاتها، وسجلّات الليالي التي فيها تكوّنت الأرض من الخواء» (ص. 117).

إلّا أنّ في هذه الأقوال وأمثالها إشارة أيضًا إلى تأثير لا وعي الإنسان في توجيه أعماله الواعية وحياته ومصيره: حقًّا إنّ ما ترغبون فيه أو تخشونه، وما تهوونه أو تمقتونه، وما تسعون إليه أو تتهرّبون منه – إنّ كلّ هذه مقيمة فيكم، تتعانق نصف العناق لا كلّه» (ص. 81). فأراد جبران أن ينبّه الإنسان إلى أغوار ذاته التي عليه أن يسبرها ليفهم الدوافع الدفينة في لا وعيه، قبل أن يستطيع تغيير نفسه والمجتمع الذي يكون جزءًا منه.

ومن مواعظ النبيّ الإجتماعية نستشفّ ثورة جبران على الظلم، وحدبه على الضعيف، وحبّه للإنسان. وهذه خصائص ميّزت معظم الأدب الرومنسيّ في الغرب. فنبيّ جبران يتألّم لأنّ المجتمع يعاقب من اقترف الجريمة، لا من دفع المجرم إلى اقترافها: «كثيرًا ما يكون المُدان حاملًا لأثقال الذين لم يدانوا قطّ ولا التصقت بهم تهمة» (ص. 73). ولذلك يدافع عن «المجرم» ويبرّئه من الذنب:



«وأنتم أيُّها القضاة الذين يودّون أن يعدلوا في أحكامكم،
أيّ حكم عساكم تصدرون على من كان شريفًا بالجسد ولصًّا بالروح؟ ...
وكيف تقاضون من كان غشّاشًا في أعماله، وكان، إلى ذلك، مهانًا ومغموط الحقّ؟» (ص. 74).

وعلى غرار الرومنسيّين يقرن جبران الشرّ بالمال، ويرى أنّ الطمع وحبّ الرفاهية يشوّهان طبيعة الإنسان الخيّرة. فيقول إنّ حبّ الرفاهية «يسخر بحواسّكم السليمة فيلفّها بالأحساك الناعمة كما تُلفّ الآنية السريعة العطب.
حقًّا إنّ الإغراق في طلب الرفاهية ليقتل أنبل نزعات النفس، ثمّ يمشي في جنازتها ضاحكًا شامتًا» (ص. 65).

ومن الطبيعيّ أن يقرن الرومنسيّ طلب المال والرفاهية بحياة المدن التي تقيّد الإنسان، وتفقده حرية الحياة في أحضان الطبيعة، وكلّ ما يرافق هذه الحرية من بساطة وصدق وظهر. ولذلك يقول النبيّ لسكّان مدينة أورفليس: «وددت لو كانت الأودية لكم شوارع، والشعاب الخضر أزقّة، كيما تتلاقوا في الكروم فتعطّر ثيابكم بأريج الأرض» (ص. 64).

كذلك يودّ أن يخلّصهم من قيود الحياة الصناعية وفسادها وتكلّفها، يقول:



«ليته كان لكم أن تستقبلوا الشمس بالكثير من جلودكم وبالقليل من أكسيتكم، لأنّ نَفَس الحياة إنّما يكون في نور الشمس، ويد الحياة في الريح» (ص. 67).

والطبيعة في نظر الرومنسي مثال الخير والطهارة والصدق. فلا شرّ في الطبيعة ولا شرّير:

«إنّ جذور الشجرة الصالحة والطالحة، والمثمرة وغير المثمرة، تلتفّ على بعضها البعض في صمت قلب الأرض» (ص. 74).

ولذلك يوضّح النبيّ لسكّان أورفليس أنّ الطبيعة ينبغي أن تكون مثلهم الأعلى، يتلقّنون منها دروس الحياة والوجود. فحين كلّمهم عن الزواج المثالي القائم على التعاون والتفاهم من غير أن يطغى أحد الزوجين على الآخر، قال: «السنديانة والسروة لا تنمو إحداهما في ظلّ الأخرى، وإنّ نبتتا في تربة واحدة» (ص. 48). والعطاء المثالي الذي نعطيه كما نتنفّس، من غير أن نشعر أنّنا نعطي، وأنّ العطاء فضيلة، هو عطاء الطبيعة: «وثمّة الذين يعطون غير متألّمين، وغير آبهين بما يسبّبه العطاء من جذل، وغير شاعرين أنّ العطاء فضيلة،

أولئك يعطون كما تعطي تلك الريحانة في الوادي عطرها للنسيم» (ص. 52).

ومن هو هذا «النبيّ» الذي طلبت منه «المطرة» أن يعطي البشر «بعض الحقيقة التي هو حاصل عليها» (ص. 42) فوقف واعظاً



سكّان أورفليس؟ إنّه الشاعر، إنّه جبران. فلقد آمن الرومنسيّون بأنّ الشـــاعر نبي. بل أكَّد وليم بليك (1757–1827)، الشاعر الرومنسيّ الإنكليزيّ الذي تأثَّر به جبران كثيـــرًا، إنّ أنبياء التوراة لم يكونوا سوى شـــعراء. وأخذًا بهذا المعتقد سرّح جبران في خاتمة «دمعة وابتسامة» : «جئت لأقول كلمة وســـأقولها... جئت لأكون للكلّ وبالكلّ» كما قال المســـيح. وكأنّه مهّد بذلك بما سيقوله «النبيّ»، أي جبران الشاعر.

ومـــا يميّز الشـــاعر، أو النبيّ، فيرفعه فوق البشـــر، هو خياله المجنّح الذي مكّنه من إدراك حقائق يقصّر دونها العقل البشـــري المحدود. وما أدركه الشاعر بخياله، بالرؤيا، بالحلم، يضمّنه نتاجه الفنّي، أو نبوءتـــه. فالخلق الفنّي «وإن يكن من نســـيج الأحلام، إلّا أنّه يصلح كســـاء وغذاء لأرواحكـــم» (ص. 70). أما ما تبتغيه الروح فهو الحقيقة المطلقة، وهذه لا يدنو منها المرء إلّا بالخيال، بالرؤيا أو الحلـــم المتحرِّر من قيود الحسّ والمنطق، ولذلك قال النبيّ مودِّعًا سكّان أورفليس: «ألا ثقوا بأحلامكم، لأنّ فيها تختبئ أبواب الأبدية» (ص. 112). كلّ ما أنجزته الحضارات قديمًا، وكلّ ما تنجزه حديثًا، كان حلمًا في خاطر الأجيال الســـابقة: «أليس أنّ حلمًا لا يذكر أحد منكـــم أنّه حلمه هو الذي بنى مدينتكم وكوّن كلّ مـــا فيها؟» (ص. 122). فالفعل لا يبدع ما لم يكن قد ســـبقه حلم. قال النبيّ فـــي فصل «العمل»: «إنّكم بالعمل تحقّقون بعضًا



من الحلم الذي هو أبعد أحـــلام الأرض، وإنّ ذلك البعض أنيط تحقيقه بكم منذُ أن ولد الحلم» (ص. 57).

ولكنّ رســـالة «النبيّ» تبقى بالدرجة الأولى، رســـالة جبران المتصوّف المؤمن بوحدة الوجود. وكلّ المواعظ الإجتماعية التي يلقيها في البشـــر تتضمّن في الوقت نفســـه معنى صوفيًا واضحًا. قال النبيّ:

«إن شئتم أن تعرفوا الله فلا تحصروا اهتمامكم في حلّ الأحاجي.

بل الأحـــرى أن تنعموا النظر في ما هـــو حواليكم، وإذ ذاك تبصرون الله يلعب مع أولادكم.

أنظروا إلى الفضاء تبصروه يمشـــي في الغمامة باسطًا ذراعيه في البرق، وهابطًا إلى الأرض مع المطر.

وانظروا إلى الأرض تروه يبســـم في الأزاهر، ثم تروه يرتفع ويلوّح بيديه من أعالي الشجر» (ص. 111).

فالله والإنســـان والطبيعـــة وكلّ ما في الكـــون وجوه مختلفة لوجود واحد، ومظاهر متعـــدِّدة لحقيقة واحدة مطلقة أزليّة أبدية. فكما أنّ الوجود واحد ولا نهاية له في المكان، يكون الزمان أيضًا وحدة لا حدود لها ولا أقسام. قال النبيّ في فصل «الزمان»:

«إلّا أنّ مـــا لا يتقيّد فيكم بزمان ليعرف أنّ الحياة لا يحصرها زمان، ويعرف أنّ أمس ليس ســـوى ذكـــرى اليوم، وإنّ الغد ليس سوى حلم اليوم» (ص. 95).



إلّا أنّ الإنسان هو محور اهتمام «النبيّ». فحين انفصلت الروح عن مصدر وجودها امتزجت بعناصر أخرى. ففي الإنسان، أوّلًا، ذاته الربّانية:

«كالمحيط هي ذاتكم الربّانية.

فهي أبدًا ظاهرة من الدنس» (ص. 71).

ولكن هذه الذات الربّانية ليست

«هي وحدها التي تملأ كيانكم.

فالكثير فيكم ما يزال إنسانًا، والكثير لم يبلغ بعد درجة الناسوت، بل هو كالمسخ الذي بغير صورة، والذي يمشي في نومه مع الضباب باحثًا عن يقظته.

وإنّي مكلّمكم الآن عن الإنسان فيكم فهو الذي يعرف الجريمة وعقاب الجريمة، وليس ذاتكم الربّانية ولا المسخ فيكم» (ص. 72).

نستنتج من ذلك أنّ في الإنسان نقصًا يحجب عنه الذات الربّانية اللامحدودة الكاملة، ويحول دون تحقيقه هذه الذات، والإتّحاد بالله، بمصدر وجوده، وإدراك الكمال. وما دام الإنسان أسير «ذاته المحدودة، في هذه الدنيا، يحسّ بالغربة والكآبة، وقد عبّر عنهما النبيّ، مشيرًا إلى مدينة أورفليس، رمز هذه الدنيا، إذ قال: «ما كان أطول أيّام الألم التي أمضيتها ضمن أسوارها، وما كان أطول ليالي الوحدة!» (ص. 37).



وهــذا الألم ممزوج بالحنين إلى الــذات العظمى، إنّه تعطُّش الإنســان للعودة إلى مصدر وجــوده الذي انفصــل عنه، ويكون الإتّحاد به ثانية أقصى ما يتمنّاه. ولذلك تقول «المطرة» للنبيّ: «عظيم وعميق هو حنينك إلى أرض ذكرياتك، وموطن الأســمى والأبعد من رغباتك» (ص. 42). ولن يتخلّص الإنســان من حنينه وتعطُّشه وعذابــه إلّا حين يــدرك الكمال ويتّحد بالمطلــق، الذي رمز إليه «البحر الشاســع» في قول النبيّ: «وأنت أيّها البحر الشاسع - أيّتها الأمّ الغافية الحالمة - أنت وحدك السلام للنهر والجدول. سيدور هذا الجدول دورة بعد - سيهمس همسة أخيرة في أذن الغابة، ومن بعدها آتيك قطرة لا تحدّ إلى محيط لا يحدّ» (ص. 39).

فألم البعد عن المطلق هو الدافــع، إذًا، إلى محاولة إدراكه. وعليه أكّد النبيّ ضرورة الألم وقيمته حين قال: «إنّما الألم انشقاق القشرة التي تغلّف إدراككم» (ص. 85). فإذا انشقّت هذه «القشرة» تخلّص الإنســان تدريجيًّا من الحواجز التي تحول بينه وبين الله، ولذلك قال النبــيّ: «وآلامكم تلك هي الــدواء المرّ الذي يصفه الطبيب فيكم لأنفســكم المريضة» (ص. 85). فالألم يزيل النقص ويطهّر من الفساد.

ولكــن الحنين ليس ألمًا فقط وإنّما هــو حبّ أيضًا. ولذلك اســتهلّ النبيّ مواعظه بالحبّ. فالحبّ جوهر الحياة، ومن أدرك هذا الجوهر يكون قد أبعد عن نفســه جلبــة الحواس الخارجية



وغشاوات الوهم. هذا ما يبيّنه النبيّ في صور رمزيّة ينتهي منها إلى قوله: «كلّ ذلك يفعله الحبّ فيكم، كيما تنكشف لكم أسرار قلوبكم فتصبحوا بعضًا من قلب الحياة» (ص. 45).

وحين تنكشف لنا أسرار الحياة تدنو من الحقيقة المطلقة، وأقصى درجات الدنو هو الإتحاد، ولذلك تقودنا هذه المعرفة الصوفية، هذا الكشف لأسرار الوجود، إلى حلول تام: «إذا أحبّ أحدكم فلا يقولنّ: إنّ الله في قلبي. وليقل بالأحرى: إنّني في قلب الله» (ص. 45).

وقد آمن المتصوّفون، ومن بعدهم الرومنسيون، بأنّ الحقيقة المطلقة الخالدة تدرك بالوحي، بإلهام يهبط في القلب، وعليه يكون الناس متساوين في قدرتهم على المعرفة، وإنّ تفاوتت حظوظهم مما نالوا منها في فترة معيّنة. يقول النبيّ: «وكما أنّ كلًّا منكم يقف وحده في معرفة الله للكائنات، كذلك يجب أن يستقلّ بمعرفته لله ويفهمه للعالم الأرضي» (ص. 90).

فالصوفي يؤمن بأنّ الناس متساوون في الأصل والمصير، فالمساواة بينهم ميتافيزيقية، إذن. يقول النبيّ: «إنّكم تمشون موكبًا واحدًا نحو ذاتكم الإلهية» (ص. 72). وينجم عن ذلك أنّ لا خيّر ولا شرّير فيهم، لا مذنب ولا بريء:

«إنّكم لا تستطيعون أن تفرّقوا بين العادلين وغير العادلين، ولا بين الصالحين والطالحين.



فجميعكم يمثلون معًا أمام عين الشمس، وينسجمون انسجام الخيط الأبيض والخيط الأسود في النسيج الواحد» (ص. 73).

ثمّ «إنّ الساقط والذي لم يسقط هما في الحقيقة رجل واحد يقف في الشفق ما بين ليل ذاته القزمة ونهار ذاته الإلهية» (ص. 75).

وما دامت كلّ «ذات قزمة» تسعى إلى الخير المطلق، أي التحرُّر من قيودها لتبلغ «ذاتها الإلهية» يكون جوهر الذات خيّرًا، والفارق الوحيد بين ذات وأخرى هو في مدى اقترابها من «ذاتها الإلهية».

«إنّ خيركم لَفي حنينكم إلى ذاتكم الجبّارة، وذلك الحنين ليس بغريب عن أيّ منكم.

إلّا أنّ ذلك الحنين سيل جارف في بعضكم يحمل إلى البحر أسرار التلال وأناشيد الغاب.

وفي الآخر ليس أكثر من جدول ضحل يتلوّى وينعطف ويتباطأ في سيره قبل أن يدرك الشاطئ» (ص. 99).

وإن وجد الخلل في الفرد فلا يكون خللًا فرديًّا وإنّما خلل جماعيّ، فالكلّ يختلّ والكلّ مسؤول:

«وإذا شاء أحدكم أن يعاقب آخر باسم الصلاح، وأن يهوي بالفاس على الشجرة الطالحة، فليتفقّد جذورها.

فهو لو فعل ذلك لوجد من غير شكّ أنّ جذور الشجرة الصالحة والطالحة، والمثمرة وغير المثمرة، تلتفّ بعضها على بعض في صمت قلب الأرض» (ص. 74).



فعلى غرار غيره من المتصوّفين نظر جبران نظرة متفائلة إلى الحياة والإنسان إذ لم يرَ فيهما إلّا الخير، ونتيجة لذلك غضّ النظر عن المشكلة التي تنجم عن وجود الشرّ في الإنسان. فإن كان الناس جميعًا «يمشون موكبًا واحدًا نحو ذاتهم الإلهيّة، يستلزم ذلك أن لا يستطيع الفرد إدراك الكمال والإتّحاد بالله إلّا إذا أدركه الكلّ واتّحد به. فهل يعني ذلك أنّ الذي تخطّى «ذاته المحدودة» لا يدرك «ذاته العظمى» ما دام غيره إنسانًا محدودًا؟ إنّ هذا يناقض ما ذهب إليه جبران حين بيّن أنّ «النبيّ» أدرك هذه الذات العظمى دون غيره من سكّان أورفليس.

كذلك يناقض تأكيد النبيّ استحالة أن يتعلّم أحدنا من الآخر حين قال: «وكما أنّ كلًّا منكم يقف وحده في معرفة الله للكائنات، كذلك يجب أن يستقلّ بمعرفته لله وبفهمه للعالم الأرضي» (ص. 90). فعلى كلّ إنسان أن يسعى بمفرده حتّى يقترب من الحقيقة المطلقة.

وجبران يجعل السعي سنّة الحياة. فبدون السعي الدائم لا يمكن أن يتخطّى الإنسان ذاته المحدودة ليقترب من الحقيقة المطلقة ويدرك ذاته العظمى. يقول النبيّ: «سأتجمّد وأتبلور إذا أنا أطلت المكوث، أو أنّني أغدو كمن صبّ في قالب» (ص. 38). فالحياة حركة متواصلة، سعي وصيرورة وتحوّل دائم نحو تحقيق الكمال: «إنّكم بالعمل تحقّقون بعضًا من الحلم الذي هو أبعد



أحلام الأرض» (ص. 57). وإن أدرك «النبيّ» ذاته العظمى فبفضل سعيه الدائب لتخطّي ذاته:

«وأنا في الواقع كنت أتسلّق التلال وأسير في الأماكن البعيدة.
وكيف كان لي أن أبصركم إلّا من علوّ شاهق ومن مسافة بعيدة؟» (ص. 120).

وينتج عن ذلك أنّ الجمود منافٍ للحياة، وعليه لا يكون هناك جمود، فالموت نفسه ليس جمودًا، وإنّما انتقال من حياة إلى حياة، وهذا يقودنا إلى إيمان جبران بالتقمُّص.

يقول النبيّ: «الحياة والموت واحد، كما أنّ النهر والبحر واحد» (ص. 112). وحين ودّع أهل أورفليس لأنّه سيموت أكّد لهم: «إنّني ذاهب مع الريح، يا أهل أورفليس، ولكن لا لأنحدر إلى فراغ العدم» (ص. 115). فيوضّح لهم أنّ غيابه سيكون لفترة فقط:

«لا يغرّبن عن بالكم أنّي سأعود إليكم.
هنيهة بعد، ويعود حنيني فيجمع الطين والزبد لأجل جسد آخر.
هنيهة بعد – لمحة استراحة على الريح – وتلدني امرأة أخرى» (ص. 125).

أمّا هذه العودات الأبديّة إلى الحياة بعد الموت في سلسلة دورات لا نهاية لها فسببها أنّ الحقيقة المطلقة لا تدرَك وأنّ الإتّحاد بالله مستحيل، فنحن نبقى في موكب مجاعة مستديمة لا بداية ولا نهاية لها. يقول النبيّ: «إنّما فخري وثوابي لَفي أنّني كلّما



دنوت من الينبوع لأطفئ عطشـــي وجدت مياهه عطشى، فتشربني إذ أشربها» (ص. 119).

إلّا أنّ كلّ دورة تكون أفضل من السابقة لأنّها أقرب منها إلى الكمال، ولذلك أكّد بتفاؤل الصوفيّ أنّ «الحياة لا تمشي القهقرى ولا هي تتمهّل مع الأمس» (ص. 49). فحنين الإنســـان إلى كمال الغاية يتحقّق في الأولاد جيلًا بعد جيل أفضل من الســـابق حتّى يبلغ الوجود غاية كماله. ولذلك قال:

«إنّ أولادكم ليسوا بأولادكم.

إنّهم أبناء أشواق الحياة وبناتها...

وأنتم تســـتطيعون أن تعطـــوا أولادكم محبّتكـــم، ولكنّكم لا تستطيعون أن تلقّنوهم أفكاركم...

لأنّ أرواحهم تسكن في مسكن الغد الذي يمتنع عليكم حتّى في أحلامكم» (ص. 49).

وإيمـــان جبران بالذات العظمى التي نســـعى أبدًا لإدراكها لا يناقض إيمانه بوحدة الوجود. فالذات العظمى والذات المحدودة ليسا إلّا وجهين لوجود واحد. ولذلك قال النبيّ للناس:

«كنت أصطاد ذواتكم الكبرى التي ترود السماء.

إلّا أنّ الصيّاد كان الطريدة كذلك» (ص. 120).

إذ اصطاد النفس الساعية إلى ذاتها:

«ذلك هو غير المحدود فيكم،



هو الإنسان الشاسع والبعيد الغور الذي لستم في جسده سوى خلايا وعضلات...

والذي أبصرته فيكم فأحببتكم» (ص. 116).

إنّها نظريّة الإنســان الكامل عند المتصوّفين، وقد قال ابن عربي، مثلًا، إنّ الإنسان الكامل هو الجنس البشريّ في أعلى مراتبه لم تجتمع كمالات الوجود العقلي والروحي والمادّي إلّا فيه. أو قل هو سوبرمان نيتشه يتخلّى عن قسوته وكرهه للبشر ويتحوّل إلى هذه الذات العظمى.

إنّ من تبعنا في هذه الدراسة إلى الآن يكون قد تِنبّه، بلا شكّ، إلــى جمع جبران بيــن المتناقضات، إنّ في آرائــه أو في عناوين فصولــه أو في رموزه. ففي فصل واحد يتكلّم عن الحزن والفرح، أو البيع والشــراء، أو الجريمة والعقاب، أو العقل والهوى، مثلًا. والحبّ «تاج وصليب... ينمّي ويقلّم» (ص 44). كما أنّ في «اتّصال الــزواج فرجة انفصال» (ص. 46). أو «أولادكم ليســوا بأولادكم» (ص. 49). و«فرحكم حزنكم وقد بات سافرًا» (ص. 61) و«الحياة والمــوت واحد» (ص. 112). فكتاب «النبــيّ» كلّه قائم على مثل هــذا الجمع بين المتناقضات. أكّد الشــاعر الصوفي «وليم بليك» في رائعته «زواج السماء والجحيم» إنّ: «لا تقدّم بدون متناقضات: الجــذب والنفــور، العقل والطاقة، الحــبّ والكــره، إنّها جميعًا ضرورية للوجود البشــري»[2]. وفي «رؤى بنــات ألبيون» بيّن بليك

[2] W. Blake. *Complete Writings*. Oxford University Press, London. 1972, p. 149.



خطأ من يحاول أن يفرض على الجميع قانونًا واحدًا، وأفكارًا وأعمالًا واحدة. فهو يرى أنّ هذا مناقض تمامًا للوحدة الحقيقية. فالوحدة قائمة على تحرُّك المتناقضات تحرُّكًا حرًّا.

وجد جبران في مؤلّفات «بليك» صدى لمعتقداته الصوفيّة وإيمانه بوحدة الوجود، فلعلّه استوحى فلسفة «بليك» اهتمامه بالمتناقضات. حين يذكر جبران المتناقضات في كلّ فصل من فصول الكتاب نحسّ برغبته في لفت أنظارنا إليها. ولكنّه لا يفعل ذلك إلّا ليرينا أنّ الوجود قائم، في الحقيقة، على تحرُّك هذه المتناقضات وتحوّل الواحد إلى الآخر، وامحاء الفرق بينها، وبذلك تكون مظاهر مختلفة لوجود واحد. يقول:

«حقًّا إنّ ما ترغبون فيه أو تخشونه، وما تهوونه أو تمقتونه، وما تسعون إليه أو تتهرّبون منه - إنّ كلّ هذه مقيمة فيكم تتعانق نصف العناق لا كلّه. وتتحرّك في كيانكم أزواجًا متلاصقة كما يتحرّك النور والظلّ.

حتّى إذا تلاشى الظلّ عاد النور الذي ابتلعه فأصبح ظلًّا لنور آخر (ص. 81). وعليه يقول في الخير والشرّ: «ما هو الشرّ إن لم يكن الخير بعينه وقد برّح به عطشه وجوعه؟» (ص. 97). وكذلك وحّد بين الحزن والفرح، وقد أسلفنا الإشارة إلى مساواته بين الحياة والموت، إذ يتحوّل الموت إلى حياة جديدة في شريعة الرجوع الأبدي التي رآها سنّة الوجود.



حتّى الروح والجسد متساويان متّحدان في نظر جبران كما اتّحدا في تصوُّف «بليك». رفض «بليك» أن يفصل بين الروح والجسد فاعتبر أنّ ما نسمّيه جسدًا هو جزء من الروح، تميّزه الحواس الخمس التي هي المداخل الرئيسية إلى الروح في حالة الإنسان الراهنة[3]. ويؤكِّد جبران أنّ «أجسادكم هي قيثارة نفوسكم» (ص. 105)، ولذلك لا يريد أن نحرم الجسد لذّته لأنّ اللذّة ضرورة وجدت بوجودنا، إن كتبناها لا تزول إلّا أنّها تتحوّل إلى شهوة خفيّة: «كثيرًا ما تحرمون أنفسكم لذّة ولكنّكم بذلك تحتزلون الشهوة في زوايا كيانكم... حتّى أجسادكم تدرك ميراثها وحقوقها الشرعية فلا تنخدع» (ص. 105).

وبناءً على ذلك لا يفاضل جبران بين العقل والهوى فـ«إنّ الله ليستريح في العقل» (ص. 83) و«إنّ الله ليتحرّك في الهوى» (ص. 83).

وهذا الموقف من الهوى واللّذة يناقض موقف العديد من المتصوّفين المتقشّفين، والفلاسفة والمفكّرين الذين يحتقرون الأهواء والملذّات، وعلى رأسهم رجال الكنيسة المسيحية. ولعلّ جبران متأثِّر هنا أيضًا بوليم بليك الذي دافع عن الشهوة في قصائد كثيرة، وقد اعتبر الإستسلام لها استسلامًا لما خلقه الله فينا،

[3] المرجع نفسه، ص. 149.



ولذلـــك لا يكون اتّباعها إثمًا. ولكن جبران يختلف عن بليك في أخذه بالعقل أيضًا، وقد احتقر بليك العقل واعتبره عنصرًا مضرًّا.

اتّضح لنا ممّا ســـبق أنّ جبران تأثّر بالصوفية وبالرومنسية ولا ســـيّما بالشاعر الإنكليزي بليك. إلّا أنّ في «النبيّ» مؤثّرات أخرى أيضًا، وعلى رأســـها المســـيحية. لا يدخل في نطاق هذه المقدّمة أن نعـــرض مفصّلًا لتأثير المســـيحية في «نبيّ» جبـــران، ولذلك ســـنكتفي ببعض البراهين فقط لنبيّن هذا التأثير. إنّه يتجلّى، أوّلًا، في إيمان جبران الصادق العميق بالله، وفي روح المحبّة الإنسانية التي تشمل الكتاب بكامله. ثمّ إنّ بعض مواعظ المصطفى صدى لتعاليم المسيح، كدعوته إلى إعطاء كلّ ما نملك إيمانًا منّا بالحياة (ص. 52). والأولاد، جعلهم المسيح مثلًا أعلى دعا تلاميذه إلى اقتفائه[4]، شـــأن النبيّ حين قال لســـكّان أورفليس «لكم أن تكونوا مثلهم» (ص. 49). ذلك لأنّ الطفولة هي البراءة والطهارة والعفوية، فيكون الطفل صادقًا طبيعيًّا في أقواله وأفعاله إذ لم تستعبده، بعد، العادات والتقاليد البالية والقيَم المختلّة.

وعلى غرار المسيح نقل النبيّ أفكاره بواسطة الأمثال والصوَر الرمزيّة أو الحسّية. لقد لجأ المسيح وغيره إلى المثل الرمزيّ ليوحوا بالفكرة بدلًا من التصريح بها، فبذلك يحثّون الإنسان على أعمال الذهن لفهم المعنى، ويجد كلّ جيل معنًى جديدًا في هذه الأمثال

---

[4] إنجيل متّى، الإصحاح الثامن عشر.



والرموز. وكثيرًا ما استخدم المسيح المثل والصورة لتوضيح فكرته أو إثبات صحّتها. كذلك فعل النبيّ، فحين أنكر، مثلًا، الفرق بين الخير والشرّ، أو بين الأنانية والكرم، ضرب مثل الشجرة.

«إنّ الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذر: كن مثلي، ناضجًا مليئًا بالحلاوة، وأعطِ أبدًا من بحبوحتك بغير حساب،

لأنّ العطاء حاجةٌ من حاجات الثمرة، مثلما الأخذ حاجة من حاجات الجذر» (ص. 98).

وكثيرًا ما استمدّ النبيّ صوره من الإنجيل، كقوله إنّ المحبّة صليب (ص. 44) أو «يجعل منكم خبزًا مقدّسًا لوليمة الله السرّية المقدّسة» أو «فخير لكم إذ ذاك أن تستروا عريكم» (ص. 45) أو «ألمهمّ هو المعموديّة لهم» (ص. 52) وغيرها.

وأسلوب النبيّ في الوعظ يحاكي أسلوب المسيح، إذ يعرض آراء السابقين في قضيّة معيّنة، ثمّ يناقضها مظهرًا خطأهم وصواب رأيه. وفي هذه المقارنة يستخدم جمل الإنجيل نفسها، كقوله:

«يقولون لكم أبدًا إنّ العمل لعنة ونكبة.

أمّا أنا فأقول لكم أنّكم بالعمل تحقّقون بعضًا من الحلم الذي هو أبعد أحلام الأرض» (ص. 57).

كذلك تأثّر جبران بالبوذيّة، أو الهندوسيّة، فلعلّه أخذ عن إحداهما إيمانه بالتقمّص، إذا لم يؤمن به المتصوّفون العرب أو بليك. وكان المذهبان منتشرين في الولايات المتّحدة في عصر



جبران. كذلك نلاحظ أوجه شبه عديدة بين «النبيّ» وكتاب نيتشه (1844–1900) «هكذا تكلّم زرادشـــت»، وإن كان بينهما اختلاف جوهري أيضًا. نذكر على ســبيل المثال أنّ الأديبين اختارا رجلًا متفوِّقًــا جعلاه يبدي آراءه فـــي موضوعـــات اجتماعية أخلاقية، كالصداقة والزواج والخير والشرّ والحبّ والأولاد والفرح والحزن والديـــن والموت وغيرها. وقد اســـتخدما، كلاهما، قالبًا شـــعريًّا مســـتوحًى من أسلوب التوراة، زاخرًا بالصور والمجازات. وكثيرًا ما تشابهت هذه الصور الرمزيّة في الكتابين، كرمزَي الحيّة والنسر، والعودة إلى البحر، أو الظهيـــرة رمز الحقيقة المطلقة، أو القوس والســـهام، رمز تجدُّد الزمان والحياة في ولادة الأبناء. و«المطرة» التي كانت أوّل من آمن بالنبيّ، اسم إلهة النور والخير في المذهب الزرادشـــتي. وكلّ من نيتشـــه وجبران آمن بالعودة الأبدية، إلّا أنّ جبران يربط هذه العودة بتوق الروح إلى الكمال وســـعيها الأبدي لإدراكه. فتصوّف جبران وإيمانه بالله وحبّه العميق للإنسانية، كلّ هذا مخالف تمامًا لروح نيتشه القلقة الناقمة الملحدة التي احتقرت البشر وكرهتهم وأكّدت «أنّ الله مات»[5].

ولكـــن، إن لم يحمل مضمـــون «النبيّ» إلى قـــرّاء الإنكليزية فلســـفة جديدة، إلّا أنّه حمل إليهم أســـلوبًا جديدًا. فقد استخدم جبران في كتابته الإنكليزية النثر الشـــعري الذي ميّز كتابته العربية

[5] F. Nietzsche. *Thus Spoke Zarathustra*. The Modern Library, New York. P 27.



بتعبيره العاطفي والتصويري وبإيقاعه الموسيقي، والذي يكّرنا نثر التوراة وصلوات الكنيسة الشرقية. ولكن جبران كثّف المعنى في جمل موجزة بعيدة الإيحاء تفتقر إلى أعمال الفكر لنفهمها.

فصول «النبيّ» مواعظ تخاطب الناس وتطلب إليهم العمل بتعاليم المصطفى، فتكثر جمل النداء والطلب (كما في فصل الحبّ أو الأولاد أو المأكل والمشرب، مثلًا). كذلك يناجي النبيّ الله، أو البحر الشاسع، أو الأمّ الغافية الحالمة (ص. 39) مثلًا. وكثيرًا ما يلجأ النبيّ إلى جمل استفهامية يعبّر بها عن ألمه أو حنينه أو تعجُّبه، أو استنكاره أمرًا من الأمور، أو تأكيده إيّاه. من هذا القبيل قوله:

«أيكون يوم الوداع يوم تلاق، ويوم التفرقة يوم جمع؟

أأقول إنّ مسائي كان في الحقّ فجري؟

وماذا عساني أقدّم للذي ترك محراثه في وسط الثلم؟» إلخ... (ص. 39).

وحين وصف الجمال وصفه وصفًا شعريًّا بلسان كلّ من المتألِّم والغضوب والملول والقلق والحارس والعامل والفلّاح (ص. 106–108).

ذلك أنّ جبران يعبِّر عن الفكرة الفلسفية أو الأخلاقية تعبيرًا تصويريًّا. ومعظم صوره رمزيّة موحية بمعانٍ عدّة. فعلى غرار غيره من المتصوّفين أحسّ جبران أنّ اللفظة الصريحة المباشرة



عاجزة عن الإحاطة بسمو المعنى الصوفي، ولذلك ينبغي الإيحاء به والرمز إليه. أولَمْ يقل النبيّ إنّ «الكثير ممّا كان يجيش في قلبه بقي متلحّقًا بالصمت لأنّه لم يكن في طاقته أن ينطق بسرّه الأعظم والأعمق» (ص. 40)؟

ولقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذه الرموز وشرحناها، فلا حاجة إلى التكرار. غير أنّنا نريد أن نلفت النظر إلى هذه الصور البعيدة الإيحاء بمعانٍ عدّة. نذكر على سبيل المثال قوله: «إنّ جميع ساعاتكم لأجنحة تشقّ الفضاء من الذات إلى الذات» (ص. 109). قد يعني ذلك أنّ الزمن لا يقاس لأنّه أوقات متشابهة ترسلها الذات الإلهية إلى الذات الإنسانية. وقد يعني أيضًا أنّ الزمن ينقل الإنسان من ذات إلى ذات أفضل في دورات حياتيّة لا نهاية لها، أو أنّ الزمن هو تخطّي الإنسان ذاته المحدودة إلى ذاته العظمى.

كذلك تستوقفنا الصور الطريقة التي ابتكرها الفنّان حين أراد أن يوضّح معنى أو أن يثبته ببرهان حسّي يقرّبه من أذهان سامعيه. من هذا القبيل التشبيه الذي استخدمه ليبيّن أنّ الزواج تعاون وليس اتّحادًا يفني شخصيّة الواحد في الآخر: «كما تبقى أوتار القيثار على حدّة إذ هي تهتزّ معًا بنغم واحد» (ص. 48). أو وضّح أنّ الفرح والحزن واحد بقوله: «أليس الناس الذي يشجوكم بألحانه عين الخشبة التي حفرت السكّين أحشاءها؟» (ص. 61). وأمثال هذه الصور كثيرة جدًّا في الكتاب.



وموسيقى نثر جبران تتجلّى في جرس اللفظة التي يختارها، أو في إيقاع تكراره بعض الألفاظ والعبارات، فضلًا عن جمله المتوازنة. وقد حافظ ميخائيل نعيمه إلى حدّ بعيد على هذا الإيقاع في ترجمته للنصّ الإنكليزي كما يتجلّى من قوله، مثلًا:

«إذا الحبّ أومأ إليكم فاتبعوه حتّى وإن كانت مسالكه وعرة وكثيرة المزالق.

وإذا الحبّ لفّكم بجناحيه فاطمئنّوا إليه، حتّى وإن جرحتكم النصال المخبوءة تحت قوادمه.

وإذا الحبّ خاطبكم فصدّقوه، حتّى وإن عبث صوته بأحلامكم كما تعبث ريح الشمال بأزهار الحديقة» (ص. 44).

ليس جبران فيلسوفًا أو عالمًا اجتماعيًّا أو نفسانيًّا أتى في كتاب «النبيّ» بنظريّات جديدة. إنّ جبران فنّان وشاعر وصوفيّ، فإن لاقى كتابه هذه الشهرة العالمية فلأنّه عبّر بريشة الفنّان وبقلم الشاعر عن عواطف وأفكار تبعث الأمل في نفوس تقلقها صراعات العالم وتناقضاته وأحقاده، فتجد في «النبيّ» الطمأنينة والراحة والعزاء.

نازك سابا يارد



كانت شهرة جبران في العالم العربي قد بلغت الذروة عندما خطر في باله أن يشقّ لها طريقًا إلى آفاق أَبعد وأَفسح. فأصدر في نيويورك أوّل كتاب له بالانكليزية وقد دعاه «المجنون» وذلك في عام 1918. وبعد عامين أَصدر كتابه الثاني وقد أَسماه «السابق». و«السابق» هو اللقب الذي يُعرف به يوحنّا المعمدان عند المسيحيين لأنه سبق المسيح ومهّد لمجيئه. وجبران، باختياره ذلك الاسم، إنّما شاء أَن يجعل من كتابه الثاني ممهِّدًا لكتابه الثالث «النبيّ» الذي كان يأمل أَن يُفرِغ فيه زبدة اختباراته في الحياة البشرية من المهد إلى اللحد، مثلما كان يأمل أَن ينطق فيه بتلك «الكلمة» التي ظلّ يفتِّش عنها حتّى آخر عمره، والّتي كان يريدها من العمق والمناعة بحيث لا تترك في نفسه أَو في نفس القارئ طمعًا في زيادة.

ولكنَّه مات وتلك «الكلمة» ما انزلقت عن قلمه ولا عن لسانه. لأنَّها طَيْفٌ لطيفٌ يتراءَى لنا من بعيد. فما إن نقترب منه



حتّى يبتعد عنَّا. فلا سبيل إلى اقتناصه بقلم أَو بلسان. ذلك لأنّ الحقيقة القصوى كانت، وستبقى، أَوسع من أَن يستوعبها نطق أَو أيّ نوع من أنواع البيان الذي ينشأ ثمّ يرتكز في الحواسّ البشرية المحدودة.

من الأكيد أَنّ جبران شعر عندما انتهى من كتابة «النبيّ» أَنّه جاء بأَقصى ما كان يملك من قوّة البيان، ورهافة الحسّ، ولطافة الذوق، وعمق التفكير، وحرارة الإيمان، وتيقّظ الوجدان. ومن المشكوك فيه أَنّه كان يحلم لكتابه بالرواج الذي لاقاه فيما بعد. ففي حين أَنَّ العالم الانكليزي ما هشّ ولا بشّ لكتابيه الأَوّلين، إذا بكتاب «النبيّ» يفرض نفسه على ذلك العالم فرضًا، فيمضي يتنقَّل من نصر إلى نصر، ويتَّسع الفَلَك الذي يدور فيه شيئًا فشيئًا حتّى يبلغ عدد النسخ التي بيعت منه منذ صدوره إلى اليوم؛ ما يقرب الثمانمئة ألف نسخة، وحتّى يُترجم إلى عشرين لغة حيَّة أو نحو ذلك!

إنّه لرَواج يكاد يكون منقطع النظير لكتاب ليس بالرواية المثيرة والمشوِّقة، ولا مؤَلّفه من الكتَّاب الذين كانت أسماؤُهم على كلّ لسان وشفة. وفي ذلك، لعمري، شهادة وأَيُّ شهادة بما في الكتاب من حيوية وجمال. أَمَّا الحيوية فيستمدُّها من جوهر الشؤُون البشرية التي يعالجها والتي تتّصل مباشرة بكلّ إنسان، وأَمَّا الجمال فيتدفّق عليك تدفُقًا من قلم جبران وريشته، ومن



حماســته وإخلاصه لفنِّه، ومن عميق إنســانيته، ومن وثيق إيمانه بصدق ما يتخيّله ويقوله.

لقد كان رواج «النبيّ» في خــلال الحرب الأخيرة أعظم منه في أيِّ وقــت آخر. ومردُّ ذلك إلى أَنَّ النــاس، إذا ما نزلت بهم الشــدائد والمحن، مالوا عن الهزل إلى الجــدّ، وعن العبث إلى التأَمّل، وعن المادّة إلى الروح، فزاد إقبالهم على الكتب التي فيها شيء من التعزية لقلوبهم الجريحة وأَفكارهم التائهة. وفي «النبيّ» الكثير من التعزيــة للبائس والقانط والحائــر والمعدم والمظلوم والمجــرم والموجَع، وللذي يرهب الموت ويحســبه آفة الآفات ونهاية النهايات.

تمنيــت لو أَنَّ جبــران تولّى ترجمة مؤَلفاتــه الإِنكليزية - أَو «النبيّ» في الأَقل - بأُســلوبه الذي تفرَّد به بين كتَّاب العربية. إلّا أَنَّه آثر أَن يترك أَمر الترجمة لغيره. وترجمة كتابٍ من طراز «النبيّ» ليست من السهولة في شيء. بل إنّها من المشقّة بمكان. فالكتاب يزخر بالتلوين الشعري، والإِيقاع الموسيقي، والإِيماءَات الرمزية، والاســتعارات المبتكرة، إلــى جانب ما فيه مــن تصوير الأفكار والأحاسيس المبهمة تصويرًا أَقلُّ ما يقال فيه أنّه ليس مألوفًا. ولا أَقول إن جبــران كان يتعمَّد الإِبهام. بل كان يعتقد أَنَّ من الأفكار والأحاسيس ما يتعذَّر نقله إلّا بالتلميح وإلّا بالرموز.



لذلك كان لا بدَّ لمترجم جبران من أَن يعرف نمطه في التفكير والتعبير ليستطيع أن يؤَدّي معانيه ومقاصده. فليس يكفي المترجم أَن ينقـل كلمة إنكليزية إلى كلمـة تقابلها في العربية. بل عليه أَن يتفهَّـم فوق ذلك أَلوان المعاني التـي أَودعها جبران تلك الكلمة والتي ليست لها في القاموس. ومن ثمّ فجبران كان شديد الحرص على أَن يزاوج الكلمات بطريقة تطرب لها الأُذن. فاهتمامه بالمعنى لم يكن أَشدَّ من اهتمامه باللون واللحن. بل كثيرًا ما كان يضحِّي بصراحة المعنى في سـبيل اللحن واللون. وهذه الأَلوان الشفّافة والألحان الشاردة قلَّما يتوفّق المترجم إلى نقلها.

إلّا أَن المترجـم، إذا فاته نقل تلـك اللطائف كما وردت في الأَصـل، فيجب أَن لا يفوته التدليل عليها في الترجمة، حتّى وإن يكن فـي ذلك ما ليس ينسـجم وروح اللغة التـي يترجم إليها. والأَهـمُّ من ذلك أَن يعوِّض المترجم عن خسـارة تلك اللطائف بأَمانتـه لمقاصد المؤَلّـف ومعانيه، لا بالإكثار من الحشـو، ولا باللَّف والدوران حول معنًى أُغلق عليه فهمه. والفظيع الفظيع هو أَن يحوِّل المترجم قولًا عن معنـاه وأَن يأْتي بكلام يعكس قصد المؤلّف فيشوِّهه تشويهًا.

وهـذه الترجمة التي بيـن يديك، إذا أَنت قابلـت بينها وبين الأَصل، وجدتها في منتهى الأَمانة لمقاصد جبران ومعانيه، وخلوًا من الحشـو المقيت، ومن اللفِّ والدوران. فجبران، وهو الشاعر



والفنان من أُمِّ رأْســـه حتّى أَخمصيه، ليس من الكتَّاب الذين يليق بمترجـــم أَن يزيد في أقوالهـــم أو أَن ينقص منها إلّا حيث تقضي الضرورة التي لا ترحم.

وأَنـــا إذ أُقدِّم إليك هذه الترجمة، لا أُقدّم إليك ظلًّا من ظلال «نبيّ» جبران. بل أقدّمه في ظلاله وأنواره، وبلحمه ودمه.

ميخائيل نعيمه

1956




مكتبة
الفكر الجديد

مرَّ على المصطفى، حبيب الله ومختاره، والرجل الذي كان فجرًا لزمانه، اثنا عشـــر حولًا فـــي مدينة أُورفليس وهـــو يرتقب عودة سفينته ليركبها قافلًا إلى الجزيرة التي كانت مسقط رأسه.

وفي الحول الثاني عشـــر، في اليوم السابع من أيلول - شهر الحصـــاد - توقّل المصطفـــى الأكمة التي خارج أَســـوار المدينة والتفت إلى البحر، فأَبصر سفينته قادمةً مع الضباب.

عندئـــذ انفتحت أَبواب قلبـــه على مصاريعهـــا، فانطلق منها سروره انطلاق الطائر السجين من سجنه وراح يحلّق عاليًا وبعيدًا فوق البحر. فأَغمض عينيه وصلّى في قرارة نفسه.

إلّا أنَّه، وهو ينحدر من الأكمة، أَحسّ كآبة تتملّكه، فقال في قلبه:

«كيف لي أَن أَنطلق من ههنا بســـلام وبغير كآبة؟ لا. لن أَبرح هذه المدينة دونَمـــا جرح في روحي. فما كان أَطـــول أَيّام الألم التي أَمضيتها ضمن أَسوارها، وما كان أَطول ليالي الوحدة! ومَنذا يستطيع أَن يودّع أَلمه ووحدته غير آسف وغير مبالٍ؟



لكَم بذرت نتفًا من روحي في هذه الشوارع! ولكَم من مواليد أَشــواقي يمشون عراةً بين هذه التلال! فكيف لي أَن أنسلخ عنهم من غير أَن أُرهق القلب بالحزن والوجع؟

إنَّ ما أَنضــوه اليوم عنّي ليس ثوبًا. إنّه لَجِلدٌ حيّ أُمزِّقه بكلتا يديّ. ولا هو فكرٌ أُخلِّفه ورائي. ولكنَّه قلبٌ صار عذبًا لشــدَّة ما قاسى من الجوع والعطش.

غيــر أَنَّ الرحيلَ لا بدَّ منــه. فالبحرُ الذي يدعــو الكلّ إليه، يدعونــي كذلك. وعليَّ أَن أُذعن فأُبحرَ من هنا. لأنّني وإن تألَّقت ساعاتي في الليل، سأَتجمَّد وأَتبلــور إذا أَنا أَطلت المكـوث. أَو أَنّني أَغدو كَمَن صُبَّ في قالب.

وددتُ لو كان في مســتطاعي أَن آخــذ معي كل مَن في هذه المدينة وما فيها. ولكن أَنّى لي ذلك؟

أَيســتطيع الصــوتُ أَن يحمل اللســانَ والشــفتينِ التي منها جناحاه؟ إنه لمَحتومٌ عليه أَن يدرك الأثير وحده.

وكذلك النســر. فهو إذ يمخر عبابَ الفضاءِ وحده لا يحمل وكره على ظهره».

وعندما أَدرك أَســفل التلِّ التفتَ المصطفــى ثانيةً نحو البحر فأَبصر سفينته تدنو من الميناءِ، وأَبصر على مقدَّمها بحَّارتها، وكلُّهم من أَبناءِ موطنه. فأَثار المشهدُ كوامن نفسه وهتفتْ لهم روحه:

«يا أبناء أُمِّي المثقلةِ بالسنين - يا من مطاياهم الأمواج والعواصف.



لَكَم أَبحرتم في أَحلامي. وها أَنتم الآن تأْتون إليَّ في يقظتي التي هي أَعمق أحلامي.

إنّي على أُهبة الرحيل، وشراعُ لهفتي في انتظار الريح.

نَفَس واحد أَنفثه بعدُ في هذا الهواءِ الهادئ - لفتةٌ واحدة أُرسلها بعدُ بعطفٍ إلى الوراء - ومن بعدها ترونني واحدًا منكم - ملّاحًا بين ملّاحين.

وأَنت أيها البحر الشاسع - أَيتها الأُمُّ الغافية، الحالمة - أَنت وحدك السلام والحريَّة للنهر وللجدول.

سيدور هذا الجدول دورة بعدُ - سيهمس همسةً أَخيرة في أُذن هذه الغابة،

ومن بعدها آتيك قطرةً لا تُحدُّ إلى محيطٍ لا يُحدّ».

وإذ كان يمشي رأى عن بعيد رجالًا ونساءً يتركون حقولهم وكرومهم ويسرعون نحو أبواب المدينة.

ولقد سمعهم يذكرون اسمه ويتنادون من حقل إلى حقل قائلين بعضهم لبعض إن سفينته قد جاءَت.

فقال في نفسه:

«أَيكون يومُ الوداع يومَ تلاقٍ، ويومُ التفرقة يوم جمع؟

أَأَقول إنَّ مسائي كان في الحقِّ فجري؟

وماذا عساني أُقدِّم للّذي ترَك محراثه في وسط الثَّلْم، وللَّذي أَوقف دولاب معصرته؟



أَيصبح قلبي شـــجرة مثقلة بالأَثمار كيما أَســـتطيع أن أَقطف وأُناولهم؟

أَم تتفجّر رغباتي فوّاراتٍ أُترعُ منها أَكوابهم؟

أَلعلّني قيثار تلمس أَوتارها أَصابع القدير؟ أَم لعلّني مزمار تمرُّ فيه أَنفاسه؟

إنْ أَنا غير إنســانٍ هامَ بالسكينة. فما هي الكنوز التي حظيت بها في الســكينة والتي أَســتطيع أن أُفرِّق منها على الآخرين بثقةٍ وراحة ضمير؟

إن يكن هذا اليوم يوم حصادٍ لي، فأَين هي الحقول التي بذرت فيها بذاري، وفي أَيِّ الفصول التي لا أَذكرها بذرت تلك البذور؟

إن تكن هذه الســاعة هي بحقٍّ الساعة التي عليَّ أَن أَرفع فيها مصباحي، فالنور الذي فيه لن يكون نوري.

سأَرفع مصباحي خاليًا من الزيتِ والنور،

ورَبُّ الليل سيملأُه بالزيت، وهو الذي سينيره كذلك».

تلك أَفكار عبَّر عنها بالكلام. ولكنّ الكثير ممّا كان يجيش في قلبه بقي متلحِّفًا بالصمت. لأَنّه لم يكن في طاقته أَن ينطق بســرِّه الأَعظم والأَعمق.

وعندما دخل المدينة أَقبل الشــعب كلّه عليه، وكانوا ينادون باسمه وكأَنّهم ينادون بصوت واحد.



وانبرى من بين الجمع شيوخ المدينة وخاطبوه قائلين: رجوناك أَلّا ترتحل عنّا.

لقد كنــتَ ظهيرةً في غســقنا، وكان شــبابك مبعثَ أَحلامٍ عِذابٍ لنا.

ما أَنتَ بالغريب بيننا، ولا بالضيفِ، بل أَنتَ ابننا الحبيب.

لا تجعل عيوننا تتعطّش إلى رؤية طلعتك منذ الآن.

وقال له الكهّان والكاهنات:

لا تــدع الأَمواج تفصل بيننا الآن، ولا الســنين التي أمضيتها معنا تصبح ذكرى لا أَكثر.

لقد مشيتَ في وسطنا روحًا، وكان ظلّك نورًا على وجوهنا.

لقد أحببناك كثيرًا. ولكن حبّنا كان حبًّا أَخرس، وكان محجَّبًا بحجبٍ كثيرة.

أَمَّــا الآن فذلك الحبّ يهتف إليــك عاليًا، ويريد أَن ينزع عنه الحجب.

والمعروف عن الحبّ منذ القِدَم أَنّه لا يُدرِك أَقصى ما فيه من عمق إلّا ساعة الفراق.

وقام آخرون من الجمع يتوسّــلون إليه بأَن يُقلع عن الســفر. ولكنّه ما كان يجيبهم بكلمة.

بل إنّه حنى رأســه. والذين كانوا بالقــرب منه أَبصروا الدمع يتساقط على صدره.



وأَخيرًا مشى ومعه الجمع إلى الساحة الكبيرة التي أَمام المعبد.

وهناك خرجت من الهيكل امرأَة تُدعى «المِطرة» وكانت عرّافة.

فنظرَ إليها بعينيــن تفيضان عطفًا وحنانًا، لأَنّها كانت أَوَّل من سـعى إليه وآمن به، ولم يكن قد مضى على وجوده في مدينتهم غير يوم واحد.

فحيَّته وقالت:

يا نبــيَّ الله، أَيها الناشــد أَقصى المعرفة! لقــد طالما جابت أَبصارك الآفاق البعيدة لعلّها تقع على الســفينة التي ستقلُّك إلى أرض آبائك وأَجدادك.

فها هي سفينتك قد أَقبلت، فلا بدَّ من الرحيل.

عظيمٌ وعميق هو حنينك إلى أَرض ذكرياتك، وموطن الأَسمى والأَبعــد من رغباتك. ونحن لن نجعل من حبّنا قيدًا لك، ولا من حاجتنا إليك حاجزًا بينك وبين أَمانيك.

وكلُّ ما نطمع فيه منك، قبــل أَن تغادرنا، هو الحصول على بعض الحقيقة التي أَنتَ حاصل عليها.

فننقلهــا إلى أبنائنا، وينقلها أبناؤُنا إلــى أبنائهم. فلا تندثر من الأَرض.

لقــد كنتَ في وحدتك تســهر مع أَيّامنا، وفــي يقظتكَ كنت تصغي إلى بكائنا وضحكنا في منامنا.



لذلك نسـأَلك الآن أن تُظهرنا لأَنفسنا وَأن تحدّثنا عن كلٍّ ما انكشف لك من شؤُون الفسحة التي تمتدّ ما بين الولادة والموت.

فكان جوابه:

«يا أَهل أُورفليس! عمَّاذا عسـاني أُحدّثكـم إن لم يكن عمَّا يعتلج الآن في نفوسكم؟»



عندها قالت المطرة: حدّثنا عن الحبّ.

فرفع رأسه وألَقى نظرة على الجمع حواليه، وللحال هبطت على الكلّ سكينة عميقة. ثمّ فتح فاه وقال بصوتٍ عظيم:

إذا الحبُّ أومأَ إليكم فاتبعوه حتّى وإن كانت مسالكه وعرة وكثيرة المزالق.

وإذا الحبُّ لفَّكم بجناحيه فاطمئنّوا إليه، حتّى وإن جرّحتكم النصال المخبوءَة تحت قوادمه.

وإذا الحبُّ خاطبكم فصدّقوه، حتّى وإن عبث صوته بأَحلامكم كما تعبث ريحُ الشمال بأَزهار الحديقة.

ومثلما يكون الحبّ لكم تاجًا، يكون لكم صليبًا. فهو إذ يُنميكم يقلِّمكم كذلك.

ومثلما يتسلّق أَعاليكم فيدغدغ أَغصانكم اللدنة المرتعشة في الشمس، هكذا ينحدر إلى أَعماقكم فيهزُّ جذوركم في الأَرض هزًّا عنيفًا.



والحبّ يجمعكم إليه كما يجمع الحاصد السنابل،
ثمّ يدرسكم ليعرِّيَكم،
ثم يغربلكم لينقِّيكم من أَحساككم،
ثمّ يطحنكم طحنًا،
ثمّ يعجنكم عجنًا،
ومن بعدها يتعهّدكم بناره المقدّسة كيما يجعل منكم خبزًا مقدَّسًا لوليمة الله السرِّية المقدَّسة.

كلّ ذلك يفعله الحب فيكم، كَيما تنكشف لكم أَسرار قلوبكم فتصبحوا بعضًا من قلب الحياة.

إلّا أنّكم، إذا ما ساوركم الخوف من متاعب الحبّ وآلامه، فرُحتم تبتغون سلامه وهناءه لا غير،

فخيرٌ لكم إذ ذاك أَن تستروا عريَكم، وأَن تبرحوا بيدر الحياة،

ثمّ أَن تعودوا إلى العالم الذي انعدمت فيه الفصول، حيث تضحكون، ولكن بعض ضحككم لا كلّه. وحيث تبكون، ولكن من غير أَن تذرفوا كلّ ما في مآقيكم من دموع.

الحبّ لا يعطي إلّا نفسه، ولا يأْخذ إلّا من نفسه.

الحبّ لا يملك، ولا يطيق أَن يكون مملوكًا. وحسب الحبّ أَنه حبّ.

إذا أحبّ أَحدكم فلا يقولنَّ: «إن الله في قلبي». وليقل بالأَحرى: «إنّني في قلب الله».



ولا يخطرنَّ لكم ببال أَنَّ في مستطاعكم توجيه الحبّ. بل إنّ الحبّ، إذا وجدكم مستحقّين، هو الذي يوجِّهكم.

ليس للحبّ من رغبة إلّا أن يتمّم نفسه.

بيد أَنّكم إذا أَحببتم، وكان لا بدّ لكم من رغبات، فلتكن هذه رغباتكم:

أَن تذوبوا في الحبّ فتصبحوا كالجدول الجاري الذي يُنشد الليلَ أَناشيده.

وأَن تعرفوا أَلَم العطف المتناهي،

وَأن تفهموا الحبّ فهمًا يجرحكم في الصميم، فتدمى جراحكم عن رضًى منكم وعن سرور،

وأَن تستيقظوا عند الفجر بقلوب مجنّحة، شاكرين الله على نهار جديد من الحبّ،

وأَن تستريحوا عند الظهيرة لتفكّروا في نشوة الحبّ،

وأَن تعودوا إلى بيوتكم في المساء شاكرين،

ثمّ أَن تأْووا إلى أَسرّتكم وفي قلوبكم صلاة من أَجل مَن تحبّون، وعلى شفاهكم نشيد الحمد والثناء.

أسئلة:

1. لماذا كان الحبّ أولى مواعظ النبي؟
2. كيف يكون في الحبّ سعادة وعذاب معًا؟



وتكلّمت المطرة ثانية فقالت:

وماذا تقول في الزواج، يا معلّم؟

فأَجابها قائلًا:

لقد وُلدتم معًا ذكرًا وأُنثى. ومعًا ستبقون إلى الأبد.

وأَجنحة الموت البِـــيض، وإن بدَّدت أَيّامكم، لن تستطيع أَن تفرّقكم.

أَجل، وستكونون معًا حتّى في صمت ذاكرة الله.

ولكن ليكن في اتّصالكم فُرجة انفصال،

وليكن هنالك مجالٌ لرياح السماء أَن ترقص في ما بينكم،

أَحبّوا بعضكم بعضًا، ولكن حذار أَن تجعلوا من الحبّ قيدًا.

بل ليكن حبّكم بحرًا مائجًا ضمن شواطئ نفوسكم.

وليملإٍ الواحد منكم كأْس رفيقه، ولكن دون أَن يشرب الاثنان من كأْس واحدة.



وليعطِ واحدكم الآخر من خبزه، ولكن من غير أَن يأْكل الاثنان من عينِ الرغيف.

غنّوا، وارقصوا، وافرحوا معًا، ولكن ليبقَ كلّ واحد منكم على حدة،

كما تبقى أوتار القيثار على حدة إذ هي تهتزّ معًا بنغم واحد.

جودوا بقلوبكم ولكن دون أَن تأْتمنوا سواكم عليها.

فما من يد تتَّسع لقلوبكم إلّا يدُ الحياة.

وقفوا معًا، ولكن من غير أَن يلتصق واحدكم بالآخر.

فأَعمدة الهيكل تتساند ولا تتلاصق.

والسنديانة والسروة لا تنمو إحداهما في ظلّ الأُخرى، وإن نبتتا في تربة واحدة.



وقالت امرأَة تضمّ إلى صدرها طفلًا:

حدِّثنا عن الأولاد.

فأَجابها وقال:

إنّ أَولادكم ليسوا بأَولادكم.

إنّهم أَبناء أَشواق الحياة وبناتها.

وهم لا يأْتون منكم. فما أَنتم إلّا الواسطة.

وهم وإن كانوا معكم ليسوا لكم.

وأَنتم تستطيعون أن تعطوا أولادكم محبّتكم، ولكنّكم لا تستطيعون أَن تلقّنوهم أَفكاركم،

لأَنّ لهم أَفكارهم،

وتستطيعون أَن تقيموا المساكن لأَبدانهم، لا لأَرواحهم، لأَنَّ أَرواحهم تسكن في مسكن الغد الذي يمتنع عليكم حتّى في أحلامكم.

ولكم أَن تكونوا مثلهم، وليس لكم أن تجعلوهم مثلكم.

لأَنَّ الحياة لا تمشي القهقرى، ولا هي تتمهّل مع الأمس.



أَنتم الأقواس، وأَولادكم السهام الحيّة التي تنطلق عنها.

وباري القوس يبصر الهدف على جادَّة الأبد، فيحنيكم بقدرته كيما تنطلق سهامه سريعة وصائبة إلى الهدف البعيد.

وعندما يحنيكم باري القوس طاوعوه عن بهجة وعن رضى، لأنّه مثلما يحبّ السهم المنطلق، يحب كذلك القوس الثابتة في يده.

أسئلة:

1. لماذا يستطيع الأهل أن يقيموا مساكن لأبدان أولادهم، لا لأرواحهم؟
2. هل صحيح أنّ الأهل لا يستطيعون أن يلقّنوا أولادهم أفكارهم؟ كيف ذلك؟



عندئذٍ قال له رجلٌ غنيّ:

حدِّثنا عن العطاء.

فأَجابه وقال:

إنّكم تعطون قليلًا عندما تعطون من حطام ما تملكون.

أَمّا العطاء الحقيقيّ فهو أَن يعطي الإِنسان من نفسه.

وهل ممتلكاتكم غير الأشـياء التي تحتفظون بها وتحرصون عليها مخافة أن تحتاجوا إليها في الغد؟

الغد! وما عسـى الغد يحمل إلى الكلـب الحذِر الذي يَدفن العظام في الرمال إذ هو يتبع الحجّاج إلى المدينة المقدَّسة؟

وهل الخوف من الحاجة إلّا الحاجة بعينها؟

أَليس العطش الذي لا يرتوي هو خوفكم من العطش في حين تفيض بئركم بالماء؟

هنالك مـن يعطي القليل من الكثير الذي لديه، ويعطيه طمعًا في الظهور. وهذا تُفسد شهوتهُ الخفيّةُ عطاءه.



وهنالكَ من يملك القليل ولكنّه يعطي كلّ ما يملك.

ذلك شأْن المؤمنين بالحياة وجود الحياة، فخِزانات هؤلاء لا تفرغ أبدًا.

وهنالك الذين يعطون وهم جذلون. فجذلهم ثوابهم.

والذين يعطون وهم يتألّمون. فأَلمهم هو المعمودية لهم.

وثمّة الذين يعطون غير متألّمين، وغير آبهين بما يسبّبه العطاء من جذل، وغير شاعرين أَنّ العطاء فضيلة.

أولئك يعطون كما تعطي تلك الريحانة في الوادي عطرها للنسيم.

بأَيدي أولئك وأَمثالهم يتكلم الله، ومن أَحداقهم يرسل بسماته إلى الأرض.

حسن أن تعطوا إذا سئلتم. والأَحسن أَن تعملوا بوحي من أنفسكم فتعطوا من غير أن تُسأَلوا.

ومَن كان سخيَّ الكفّ فَلَذَّته في التفتيش عمَّن يأْخذ منه، لأعظم بكثير من لذَّته في العطاء.

أَتضنُّون بشيءٍ ممّا تملكون؟

أَليس أنّكم ستُكرهون في النهاية على التخلّي عن كلّ ما تملكون؟

إذن بادروا الآن إلى العطاء، كَيلا يفوتكم موسم العطاء فيكون من نصيب ورثتكم.

كثيرًا ما تقولون: إنّي أَودُّ أَن أُعطي، ولكنّ المستحقّين فقط.

ما هكذا تقول الأشجار في بساتينكم، ولا القطعان في مراعيكم.



بل إنّها تعطي لتحيا. إذ إنَّ في إمساكها هلاكها.

حقًّا إنَّ من اســتحقّ أيّامه ولياليه من يــد الحياة لحقيق بكل شيءٍ منكم.

والذي استحقَّ أن يســتقي من محيط الحياة لجدير بأن يملأَ كأْسه من ساقيتكم الصغيرة.

وأيُّ اســتحقاق أعظم من الجرأَة والثقة، بل من الكرَم، التي ينطوي عليها قبول العطاء من المعطي؟

وأنتَ مَــن أنتَ أيّهــا المعطي حتّــى يمزِّق النــاس أمامك صدورهــم ويهتكوا الحجب التي بها تتحجَّب كرامتهم كيما تتبيَّن مقدار استحقاقهم، وكيما تمثل لديك أنفتهم عريانةً حييَّة؟

إنّه لحريّ بك أن تســتوثق أوّلًا من أنّك مســتحقّ أن تعطي وأنّك أداة صالحة للعطاء.

إنّمــا الحياة هي التــي تعطي ذاتها من ذاتهــا. أمّا أنتم الذين تتوهّمون أنّكم تعطون فلستم في الواقع غير شهود.

وأنتم أيّها الذين يتقبّلون العطايا - وكلُّكم يتقبّلها - حذار أن يرهقكم عرفان الجميل لئلّا يكون عرفانكم نيرًا ثقيلًا لكم وللّذين تقبّلتم عطاياهم.

بل الأحرى بكم أن تجعلوا من عطايا المعطي أجنحة ترفعكم وإيّاه إلى الأعالي.



لأنّكم إذا بالغتم في الشعور بِدَيْنكم للمعطي فكأنّكم شككتم إذ ذاك في كَرَمه. وهو الذي أُمّه الأرض السخيَّة الفؤَاد، وأَبوه الله.

أسئلة:

1. ما أنواع العطاء التي يعدّدها جبران؟
2. أيُّها أفضل؟ ولماذا؟
3. أين وجد نموذج هذا العطاء المثالي؟
4. لماذا طلب جبران أن لا نمنّ بالعطاء، وأن لا نعترف بالجميل؟



عندها قال له شيخ، وكان صاحب فندق:

حدِّثنا عن المأكل والمشرب.

فأَجابه قائلًا:

ليت لكم أَن تعيشـــوا بعبير الأَرض، وأَن تحيَوا بالنور كنبتات الهواءِ.

أَمّا وأَنتم مرغمون على القتل لتُشبعوا ما بكم من جوع، وعلى سـلب العجول والحملان لبن أمَّاتها لتطفئوا ما بكم، من عطش، فليكن ذلك بمثابةِ العبادة من قِبلكم،

ولتكن موائدكم مذابح تقدِّمون عليها كلّ ما هو طاهر وبريءٌ من مواليد السهل والغاب ذبائحَ لكلٍّ ما هو أَطهر منها وأَكثر براءَة في الإِنسان.

وعندما تذبحون بهيمة قولوا لها في قلوبكم: «إنَّ عين القدرة التي تذبحكِ تذبحني. وأَنا كذلك سأَغدو طعامًا لغيري.



«فالقضاءُ الذي ســلَّمك إليَّ هو عينه الذي سيسلّمني إلى من هو أَقدر منّي.

«وما دمكِ ودمي غير العصارة التي تغذّي شجرة الحياة».

وإذا انتهسَ أحدكم تفّاحة فليقل لها في قلبه:

«إنّ بذورك ستحيا في جسدي،

وإنَّ براعمَ غدكِ ستتفتَّح في قلبي،

وسيكون أَريجكِ في نَفسي،

ومعًا سنفرح على مدى الفصول».

وفي الخريفِ، عندما تحملــون أَعنابكم إلى المعصرة، قولوا في قلوبكم:

«أنا كذلك كرمة، وعناقيدي ستُقطف وتُحمل إلى المعصرة،

وكخمرةٍ جديدة سأُحفظُ في الأواني الأبدية».

وفي الشتاءِ عندما تسحبون الخمر من آنيتها، لتكن في قلوبكم أُغنية لكلّ كأْس.

ولتكن في كلّ أُغنيةٍ ذكرى لأيّام الخريف، للكرمةِ وللمعصرة.



ثم تقدَّم حرَّاثٌ فقال:

حدِّثنا عن العمل.

فأَجابه قائلًا:

أَنتم تعملون مطاوعةً للأرض ولروح الأرض.

أَمَّا أَخو البطالة فغريب عن الأرض وفصولها، وليس هو من موكب الحياة السائر بجلال عظيم وطواعية أَبيَّة نحو اللامتناهي.

وأنتم، عندما تعملون، فكأنّكم الناي يتحوّل همسُ الساعات في قلبه موسيقى عذبة.

وأَيّ منكم يؤثر أن يبقى قصبةً خرساء في حين كلّ ما حواليه يغنّي معًا؟

يقولون لكم أبدًا إنّ العمل لعنة ونكبة.

أَمّا أَنا فأَقول لكم إنّكم بالعمل تحقّقون بعضًا من الحلم الذي هو أَبعد أَحلام الأَرض، وإنّ ذلك البعض أُنيط تحقيقه بكم منذ أَن وُلد الحلم.



وأَنتم، إذ تحيون بالعمل، تعبِّرون عن حبّكم للحياة،
ومَن أَحبَّ الحياة بالعمل فقد وقف على أَعمق سرّ من أَسرارها.
ولكــن إذا حملتكم آلامكم على أن تبصروا في الولادة رزيَّة، وفي تقويم أَود اللحم والدم لعنةً مكتوبة على جباهكم،
فجوابي على ذلك هو أَنَّ مــا كُتب على جباهكم لن يمحوه غير عرق جباهكم.
لقد قيل لكم كذلك إنَّ الحياة ظلمة. ولقد رحتم، لفرط ما بكم من تعب وملل، تردّدون ما قاله لكم المتعبون والذين بهم ملل.
أمّا أنا فأَقول لكم إنّ الحياة ظلمة حقًّا إلّا حيث يكون اندفاع.
وكلّ اندفاع أعمى، إلّا إذا رافقته المعرفة.
وكلّ معرفة لا تجدي فتيلًا، إلّا إذا تحوَّلت عملًا،
وكلّ عمل لا خير فيه إلّا إذا قامت به المحبّة.
أَمَّا إذا عملتم بمحبّة فأَنتم إذ ذاك تشدُّون أَنفسكم إلى أَنفسكم، وبعضكم إلى بعض، وإلى الله.
وما هو العمل المقرون بالمحبّة؟
هو أَن تحوك النسيج فتســتلَّ خيوطه من قلبك كما لو كانت حبيبتك سترتديه.
وهو أَن تبني البيت بشوق ولهفة كما لو كنت تُعدّه مسكنًا لحبيبتك.
وهو أَن تبذرَ البذار بتحنان وتحصد الزرع بفرح كما لو كانت حبيبتك هي التي ستأْكل منه.



وهو أَن تنفخ من روحك في كلّ ما تصنعه يداك.

وأن تعرف أَنّ جميع الموتى المغبوطين قد تجمهروا حواليك، وأَنَّهم يتتبّعون كلّ حركة من حركاتك.

لَكَم سمعتكم تقولون، وكأَنّكم تتكلّمون في منامكم: «إنّ الذي يعمل في المرمر، ويجسِّم نفسه في الحجر، لأشرف بكثير من الذي يحرث الأرض.

والذي يقبض على قوس السحاب ليبسط ألوانه على القماش في شكل إنسان، لأكبر قدرًا من الذي يصنع الأحذية لأرجلنا».

ولكنّني أَقول لكم - لا في المنام بل في يقظة الظهيرة - إنَّ الريح لا تخاطب السنديانة العتيَّة بلغة أَعذب من تلك التي تخاطب بها أَصغر وريقة من العشب،

وإنَّ العظيم حقًّا هو ذلك الذي، بفرط محبّته، يجعل من صوت الريح أُنشودة بالغة العذوبة.

إنّما العمل محبَّة كانت خفيَّة فبانت للعيان.

فإن تعذَّر عليكم أن تعملوا بمحبَّة، وكنتم تعملون مكرهين ومشمئزِّين، فخيرٌ لكم لو هجرتم كلّ عمل، وجلستم عند باب الهيكل، وتقبّلتم الصّدقات من الذين يعملون فرحين.

لأنكم إذا خبزتم خبزًا، وكنتم غير مبالين بما تعملون، كان خبزكم مرًّا، لا يُشبع من جوع الناس غير النصف.



وإذا دستم العنب في المعصرة، وفي قلبكم حقد، كان حقدكم سمًّا في الخمر التي تستقطرون.

وإذا غنّيتـــم حتّى كالملائكة، وكنتم لا تحبّـــون ما تغنّون، فإنّكم بغنائكم تصمّون آذان الناس دون أَصوات النهار، ودون أَصوات الليل.



وقالت امرأة:

كلِّمنا عن الحزن والفرح.

فأَجاب وقال:

إنّما فرحكم حزنكم وقد بات سافرًا.

فالبئــر التي منها يرشــح فرحكم هي عين البئــر التي طالما فاضت بدموعكم.

وكيف يكون الأَمر إلّا كذلك؟

فكلّما أَمعن الحزن حفرًا في كيانكم اتّسع المجال فيكم للفرح.

أَليست الكأْس التي تترعونها خمرًا عين الكأس التي احترقت في موقد الخزّاف؟

ثــمّ أَليس الناي الذي يشــجوكم بأَلحانه عين الخشــبة التي حفرت السكّين أَحشاءَها؟

عندما تأْخذكم سورة الفرحِ تطلَّعوا إلى أعماقِ قلوبكم تجدوا أنّ الذي ســبَّب لكم الفرح الآن هو عين الذي جَاءَكم منه الحزن في ما مضى.



وعندما تطغى عليكم موجة من الحزن، فتّشوا قلوبكم كذلك. وستدركون أنّكم تبكون في الواقع ذلك الذي كان مصدرَ بهجةٍ لكم سابقًا.

يقول بعضكم: «إنّ الفرح أَعظم من الحزن». ويقول البعض الآخر: «كلّا. بل الحزن هو الأعظم».

أَمّا أَنا فأَقول لكم إنّ الاثنين لا ينفصلان.

فهما يأْتيان معًا. وعندما يجلس أَحدهما إلى مائدتكم، فلا تنسوا أَنّ الآخر ينام في سريركم.

حقًّا إنّكم لأشبه ما تكونون بين حزنكم وفرحكم بِكفّتَي ميزان.

فلا تستوي الكفّتان وتستقرّان في حال واحدة إلّا إذا كانتا فارغتين.

وعندما يرفعكم حارس الخزينة ليزن ما فيكم من ذهب وفضّة، إذ ذاك لا بدَّ من أَن تشيل أو تهبط كفّة فرحكم أَو كفّة حزنكم.



عندئذٍ تقدَّم رجلٌ بنّاءٌ وقال له:

حدِّثنا عن البيوت.

فأَجابه وقال:

ابنوا من تخيّلاتكم عريشًا في القفر قبل أَن تبنوا لكم بيوتًا ضمن أَسوار المدينة.

لأَنّكم مثلما تؤوبون إلى مساكنكم عند الشفق، كذلك لا بدّ للمجهول والتائه والمستوحد فيكم من مسكن يؤوب إليه.

إنّ بيتكم هو جسدكم الأَكبر.

وهو ينمو بالشمس في النهار، وفي سكينة الليل يهجع.

وهجوعه ليس خلوًا من الأَحلام.

أَليس أَنَّ بيوتكم تحلم كذلك؟ وإذ تحلم تنطلق من المدينة إلى الخمائل وأَعالي التلال؟

وددت لو أجمع كلّ مساكنكم في قبضة يدي لأذروها في المروج والغابات نظير ما يذرو الزارع البذار.



وددتُ لو كانت الأودية لكم شوارع، والشعاب الخضر أَزقَّة، كيما تتلاقوا في الكروم فتتعطّر ثيابكم بأَريج الأرض.

إلّا أنّ الوقت لم يحن لذلك بعد.

هو الخوف جعل آباءَكم وأَجدادكم يحشرونكم جماعات جماعات...

وذلك الخوف سيرافقكم بعد ولو لأجَل قصير. ولأجَلٍ قصير ستبقى أسوار مدينتكم حاجزًا ما بين مواقدكم وبين حقولكم.

ألا خبِّروني يا أَهل أُورفليس ماذا الذي عندكم في هذه البيوت؟ وما ذا الذي تخزنونه وتحرسونه وراءَ أَبوابكم الموصدة؟

أعِندكم السلام - ذلك الحافز الهادئ الذي يكشف لكم عمّا فيكم من قدرة؟

أَعِندكم الذكريات - تلك القباب المشعّة التي تصل قمم الفكر بعضها ببعض؟

أم عِندكم ذلك الجمال الذي ينتهي بكم من الأشياءِ المصنوعة من الخشب والحجر إلى الجبل المقدَّس؟

قولوا، أَعِندكم هذه كلّها في بيوتكم؟

أَم عِندكم الرفاهية وشهوة الرفاهية - تلك الشهوة الخبيثة التي تتسلّل إلى البيت ضيفةً، فلا تلبث أن تصبح مضيفةً، وتنتهي بأَن تبيت سيِّدة؟



أَجــل. إنّ حُبَّ الرفاهية ينتهي بأَن يغــدو لكم مروِّضًا، وبأَن يمسخ بكلّابه وسوطه رغباتكم العليا أَلاعيب ومساخر.

فهو، وإن تكن يده حريريّة الملمس، فقلبه من حديد.

وهو يهدهدكم لتناموا. ولكنّه يقف بجانب السرير ساخِرًا بهيبة أَجسادكم.

وهو يسخر بحواســكم السليمة فيلفّها بالأحساك الناعمة كما تُلَفُّ الآنية السريعة العطب.

حقًّا إنّ الإِغراق في طلب الرفاهية ليقتل أَنبل نزعات النفس، ثمّ يمشي في جنازتها ضاحكًا شامتًا.

أَمّــا أَنتم يا أَبناءَ الفضاء، الذيــن راحتهم قلق، فلن تصطادكم شراك، ولن يروِّضكم مروِّض.

وبيتكم لن يكون لكم مرساةً، بل يكون صاريًا.

ولن يكون غشــاءً لمّاعًا كالذي يستر الجرح. بل يكون جفنًا يحرس العين.

وأنتم لــن تطــووا أَجنحتكم كيمــا يتاح لكــم الدخول من الأبواب، ولن تطأْطِئوا رُؤوســكم مخافة أن تنطح الســقف، ولن تحبسوا أَنفاسكم مخافة أَن تتشقَّق الجدران فتنهار.

وأَنتم لن تسكنوا مدافن بناها الأموات للأَحياء.

ولن تتّســع دوركم، مهما بلغت من الروعة والأناقة، للسـرّ الدفين فيكم ولا لأشواقكم.



لأَنَّ ما لا يُحـــدّ فيكم يقطن قصر الســـماء الذي بابه ضباب الصباح، ونوافذه أَناشيد الليل وسكونه.

أسئلة:

1. كيف أثبت النبي أنّ الحزن والفرح متساويان في الحياة؟
2. هل كان له هدف اجتماعي من هذا القول؟
3. وما غايته الصوفية؟
4. ماذا يشترط النبي لتكون «البيوت» مثالية؟
5. ما مآخذه على الناس في هذا الفصل؟



وقال له رجل، وكان حائكًا:

كلِّمنا عن الثياب.

فأَجابه قائلًا:

إنّ ثيابكم تسترُ الكثير من جمالكم، ولكنَّها لا تحجب ما ليس جميلًا فيكم.

وأَنتم، وإن كنتم تبتغون من ثيابكم التسترّ عن أَعيُن الغير وما في التســـتّر من حريَّة، إلّا أنّكم واجدون فيها لأَنفسكم قيدًا وعُدَّة كالتي يجهَّز بها حصان العربة.

ليته كان لكم أن تستقبلوا الشمس بالكثير من جلودكم وبالقليل من أَكسيتكم،

لأَنّ نَفَس الحياة إنّما يكون في نور الشمس، ويد الحياة في الريح.

يقول البعض منكم: «إنّ ريح الشمال هي التي نسجت الثياب التي نكتسيها».

وأَقول: أَجل. إنها ريح الشمال.



ولكنَّ الخزي كان منوالها. وكان ارتخاء العضلات خيطها.

وعندما فرغت من عملها راحت تقهقه في الغاب.

لا يغربنّ عــن بالكم أنَّ الحشــمة درعٌ ضدّ عيــنٍ في قلب صاحبها رجاسة.

وعندما لا يبقى هنالك من رجاســة فهل الحشمة إذ ذاك غير غُلّ في العنق وغير قذارة في الفكر؟

ثم لا تنســوا أَن الأرض تبتهج بلمــس أَقدامكم العارية، وأنّ الريح تتوق إلى اللعب بشعوركم.

أسئلة:

1. ما مآخذ النبي على الثياب؟ إلام ترمز الثياب في هذا الفصل؟
2. ما سبب ارتداء الناس الثياب؟
3. متى يصبح بإمكانهم الإستغناء عنها؟



وقال تاجر:

حدِّثنا عن البيع والشراء.

فأَجابه قائلًا:

إنّ الأرض تمنحكم خيراتها بغير انقطاع. وأَنتم ما كنتم لتعرفوا الحاجة لو أنَّكم عرفتم كيف تملأُون أيديكم.

ففي تبادلكم هبات الأَرض تجدون البحبوحة والرضى.

ولكنَّ التبادل، ما لم يجرِ بروح المحبّة والانصاف، قاد البعض إلى النَّهم، وجرَّ البعض إلى الجوع.

عندما يتلاقى في سوق المدينة العاملون منكم في البحر وفي الحقل وفي الكرم بالحائكِين والخزّافين وجامعي الطيوب،

فليضرعوا إلى روح الأرض العظيم لينضمَّ إليهم، ويكرِّس موازينهم والمعَادلات التي يقيمونها بين قيمة وقيمة.

ولا تسمحوا لعقيمي الأيدي بأَن يتدخّلوا في ما تجرونه من صفقات، لأنَّ من شأْنهم أن يقايضوكم كلامًا بأَتعابكم.



بل عليكم أَن تقولوا لهؤُلاء وأَمثالهم:

«تعالــوا معنا إلى الحقل. أَو فاذهبوا مــع إخواننا إلى البحر وهنــاك أَلقــوا شــباككم. والحقــل والبحر سيســخوان عليكم سخاءهما علينا».

وإذا جاءَكم المغنُّون والراقصون والنافخون في الناي - فاشتروا من هداياهم كذلك،

فهم أيضًا من جامعي الثمار والبخّور، والذي يحملونه إليكم، وإن يكن من نسيج الأحلام، إلّا أنّه يصلح كساءً وغذاءً لأرواحكم.

وقبل أن تغادروا الســوق تأَكّدوا من أَنّ أَحدًا لم يعد إلى بيته فارغ اليدين.

لأَنّ روح الأرض العظيم لن يهنأَ له نوم على فراش الريح إلّا إذا انقضت حاجة الأصغر والأخير فيكم.



وعندها تقدَّم قاضٍ من قضاة المدينة، فسأَله:

حدّثنا عن الجريمة والعقاب.

فأَجابه وقال:

إنّما تذنبون إلى الغير، وبالتالي إلى أَنفسكم،

عندما تنطلق أَرواحكم هائمة مع الريح دونما حارس أَو رفيق.

والذنب الذي تقترفونه إذ ذاك يقضي عليكم بأَن تبقوا مدّة خارج دار الأبرار وأَن تقرعوا الباب فلا يُفتح لكم.

كالمحيط هي ذاتكم الربّانية.

فهي أبدًا طاهرة من الدنس.

وهي كالأَثير لا ترفع إليها إلّا المجنّحين.

بل كالشمس هي ذاتكم الربّانية.

فهي تجهل مسالك المناجذ، ولا تدخل أجحار الأفاعي.

ولا هي وحدها التي تملأ كيانكم.



فالكثير فيكم ما يزال إنسانًا. والكثير لم يبلغ بعد درجة الناسوت؛ بل هو كالمسخ الذي بغير صورة، والذي يمشي في نومه مع الضباب باحثًا عن يقظته.

وإني مكلّمكم الآن عن الإنسان فيكم فهو الذي يعرف الجريمة وعقاب الجريمة، وليس ذاتكم الربّانيّة ولا المسخ فيكم.

كثيرًا ما سمعتكم تتكلّمون عمّن يقترف جُرمًا بينكم كما لو كان ليس منكم، وكما لو كان غريبًا عنكم ودخيلًا على دنياكم.

إلّا أنّني أقول لكم إنّه نظير ما يتعذّر على البارّ والصدّيق أَن يسموَا فوق الأبعد والأعلى فيكم،

هكذا يتعذّر على الشرير والضعيف أَن ينحدرا إلى ما دون الأدنى والأحطّ فيكم.

وكما أَنّ ورقةً واحدةً على الشجرة لا تصفَرُّ إلّا بمعرفة الشجرة كلّها،

كذلك لا يستطيع المجرم أَن يقترف جرمًا إلّا بالإِرادة الخفيّة التي هي إرادتكم كلّكم.

إنّكم تمشون موكبًا واحدًا نحو ذاتكم الإِلهية.

أَنتم الطريق، وأَنتم السالكون فيه.

وعندما يسقط أَحدكم فإنّما يسقط نذيرًا للماشين خلفه بوجود حجر عثرة في الطريق.



أَجل. وهو يسقط في سبيل الذين تقدّموه كذلك. لأَنّهم، وإن كانوا أَثبت منه قدمًا وأَوسع خطًى، إلّا أنّهم لم يرفعوا حجر العثرة من الطريق.

وأَقول لكم كذلك، وإن ثقلت كلماتي على قلوبكم:

إنّ القتيل ليس بغير مسؤول عن قتله،

وإنّ المسلوب ليس بغير ملوم في سلبه،

وإنّ الصدّيق ليس بريئًا من صنائع الشرّير،

ولا أَبيض اليدين غير ملوّث بقذارة المجرم.

أجل. كثيرًا ما يكون المجرم ضحيّة مَن وقعت عليه جريمته.

وكثيرًا ما يكون المُدان حاملًا لأثقال الذين لم يُدانوا قط ولا التصقت بهم تهمة.

إنكم لا تستطيعون أَن تفرّقوا بين العادلين وغير العادلين، ولا بين الصالحين والطالحين.

فجميعهم يمثلون معًا أمام عين الشمس، وينسجمون انسجام الخيط الأبيض والخيط الأسود في النسيج الواحد.

حتّى إذا انقطع الخيط الأسود توقّف الحائك عن عمله فتفحّص النسيج كلّه، وتفقّد النول كذلك.

إذا عنَّ لأحدكم أَن يسوق الزوجة الخائنة إلى المحاكمة،

فليزِن قلب زوجها كذلك في الميزان، وليقِس نفسه بالمقاييس.



والــذي يفكّر فــي جَلْدِ المذنِــب دعــهُ أَوّلًا يتفحّص روح المذنَب إليه.

وإذا شــاءَ أَحدكم أَن يعاقب آخر باســم الصلاح، وأَن يهوي بالفأْس على الشجرة الطالحة، فليتفقّد جذورها.

فهو لــو فعل ذلك لوجد من غير شــكّ أَنّ جذور الشــجرة الصالحــة والطالحة، والمثمرة وغير المثمــرة، تلتفّ بعضها على بعض في صمت قلب الأرض.

وأَنتم أَيّها القضاة الذين يودّون أَن يعدلوا في أَحكامهم،

أيّ حكم عســاكم تصدرون على من كان شــريفًا بالجســد ولصًّا بالروح؟

وأيّ العقاب عســاكم تنزلون بمن يَقْتل الجسد فيمسي لذلك قتيلًا بالروح؟

وكيف تقاضون من كان غشّاشًا في أَعماله، وكان، إلى ذلك، مهانًا ومغموط الحقّ؟

وكيف تقتصّون من الذين تبكيت ضمائرهم بات أَشــدّ هولًا عليهم من قبيح أَعمالهم؟

أَليس تبكيــت الضمير هو العدل الذي يقضي به عين القانون الذي يسرّكم أَن تكونوا في خدمته؟

وأَنتم، مع ذلك، لا تستطيعون أَن تجعلوا ضمير البريء يبكّته، ولا أَن تنزعوا التبكيت من قلب المذنب.



فالتبكيت يأْتي من تلقائه في الليل ليوقظ المذنبين كيما يبصروا حقيقتهم.

وكيف لكم أَن تفهموا العـــدل أَيّها الطامعون في فهمه ما لم تسلّطوا على شتّى الأعمال نورًا يكشف لكم كلّ مخبّآتها؟

عندئذ فقط تدركون أَنّ الساقط والذي لم يسقط هما في الحقيقة رجل واحد يقف في الشفق ما بين ليل ذاته القَزمة ونهار ذاته الإِلهية،

وتدركون كذلـــك أَنّ رأْس الزاوية في الهيكل ليس بأرفع من أَيّ حجر في أسفل الأساس.

أسئلة:

1. أثبت بالشاهد كيف يكون الناس جميعًا مسؤولين عن الجرائم المقترفة في المجتمع.
2. كيف يظهر هذا الفصل إنسانية جبران وعطفه على المظلوم؟
3. بمَ تتميّز نظرته إلى الإنسان هنا؟



عندئذٍ تقدّم منه محامٍ وقال:

ما قولك في القانون، أيّها المعلّم؟

فأَجابه:

إنّكم لتجدون لذّة في سنّ القوانين،

ولكنّكم تجدون لذّة أَعظم في انتهاكها. فحالكم مع قوانينكم هي حال الصِّبْيَةِ يبنون أَبراجًا من الرمل على الشاطئ بجدّ ومثابرة فلا يلبثون أَن يهدموها ضاحكين.

وفيما أَنتم تبنون أَبراجكم الرمليّة يأْتيكم البحر بالمزيد من الرمل،

وعندما تهدمونها ضاحكين يضحك البحر كذلك معكم.

حقًّا إنّ البحر يضحك أبدًا مع السذَّج.

ولكن ما قولكم في الذين ليســـت الحيـــاة عندهم بحرًا، ولا القوانين التي يسنّها الناس أَبراجًا من رمل،

بل الحياة عندهم بمثابة صخرة، والقانون بمثابة إزميل، وهم لا ينفكّون ينحتون به الصخرة لتأْتي على صورتهم ومثالهم؟



ما قولكم في الكسيح الذي يكره الراقصين؟

وفي الثور الذي يحبّ نيره ويحسب الظبي والأَيّل في الغاب من المخاليق المتشرّدة؟

وفي الأَفعى الهرمة التي تعذّر عليها نزع جِلدها فباتت تعيب على غيرها من الأَفاعي العري وقلّة الحياء؟

وفي الذي يبكر في الذهاب إلى العرس حتّى إذا تَخِم من كثرة الأكل عــاد من العرس وهو يقــول إنّ كل الولائم هَتْكٌ للقانون، وكلّ الذين يشتركون فيها يمتهنون الشريعة؟

ماذا عساني أَقول في كلِّ هؤلاء أَكثر من أَنّهم - هم كذلك - يقفون في نور الشمس، ولكنّ ظهورهم أَبدًا للشمس؟

فهم لا يبصرون غير خيالاتهم، وخيالاتهم هي قوانينهم.

وهل الشمس لهؤُلاء إلّا جِرم مهمَّته طرح الظلال؟

وهــل امتثالهم للقانــون غير طأْطأَتهم للرؤوس ثمّ رســمهم لظلالهم على التراب؟

أَمّا أَنتم الذين يسيرون ووجوههم نحو الشمس، فأَيّ الظلال المرسومة على التراب تستطيع أن تستوقفكم؟

وأَنتم يا رفاق الريح، أَيّة آلة يقيمها الناس لمعرفة اتّجاه الريح تستطيع أن تحدّد اتّجاهكم؟

وأَيّ قانون بشــريّ يمكن أَن يقيّدكم إذا أَنتم حطّمتم نيركم، ولكن ليس على باب سجن إنسان من الناس؟



وأَيّ قانون ترهبون إذا أَنتم رقصتم، ولكن من غير أَن تتعثّروا بسلاسل أَيّ إنسان؟

ومَن يجسر أَن يقتادكم إلى المحكمة إذا أَنتم مزّقتم ثيابكم، ولكن من غير أَن تلقوا بها في طريق أي إنسان؟

يا أَهل أُورفليس! في استطاعتكم أَن تخنقوا صوت الدُّف، وأَن تَحلّوا أَوتار القيثار، ولكن مَن الذي يستطيع أَن يأْمر القبَّرة بأَلّا تغنِّي؟

أسئلة:

1. متى يكون القانون بمثابة «إزميل»؟
2. لِمَ انتقد جبران المتمسّكين بالقوانين القديمة؟ أين ظهر هذا الإنتقاد؟



وقال له خطيب:

حدّثنا عن الحرّية.

فأَجابه قائلًا:

رأَيتكم عند مدخل المدينة، وفي بيوتكم، تسجدون لحرّيتكم وتعبدونها،

كما يسجد العبيد لأسيادهم الطغاة ويمجّدونهم حتّى وإن كان نصيبهم منهم القتل.

أجل. لقد رأَيت الأَكثر حريّةً بينكم في حديقة المعبد وفي ظلّ القلعة يحملون حرّيتهم نيرًا على أَعناقهم وغُلًّا في أَيديهم.

وكان قلبي يدمى شـــفقةً عليهم. لأنّكم لن تكونوا أَحرارًا إلّا من بعد أن يصبح حتّى شـــوقكم إلى الحرّية إرهاقًا لكم، وإلّا من بعد أَن تكفّوا عن التغنّي بالحرّية كما لو كانت هدفًا واكتمالًا.

حقًّا إنكم لن تكونوا أَحرارًا ما لم يكن لكم، في كل يوم همّ، وفي كل ليلة حاجة وحزن،



وما لم تمنطق هذه الأشــياء حياتكم فتنفضوها عن كواهلكم وترتفعوا فوقها عراةً طليقين.

إذ كيــف لكم أَن ترتفعوا فوق أَيّامكــم ولياليكم إلّا إذا حطّمتم السلاسل التي، في بدء إدراككم، أَحكمتم شدّها حول ساعة ظهيرتكم؟

حقًّا إنَّ ما تدعونه حرّيةً لَهو الأقوى بين تلك السلاسل، حتّى وإن بهركم لمعانها في الشمس.

ومــاذا عســاكم تنبذون غير نتــفٍ من ذواتكــم طمعًا منكم بالوصول إلى الحرّية؟

إن يكن ما تبتغون التخلّص منه شــرعةً جائرة، فاذكروا أَنّكم أَنتم الذين كتبتموها بأَيديكم على جباهكم.

وهذه الشــرعة لن يتاح لكم الخلاص منها بحرقكم مجموعة قوانينكم، ولا بغســلكم جباه قضاتكم حتّى وإن سكبتم عليها كلّ ما في البحر من ماء.

وإن يكن مبتغاكم أن تُنزلوا طاغيةً عن عرشــه، فاعملوا أوّلًا على تحطيم ذلك العرش الذي أَقمتموه له في قلوبكم.

إذ كيف لطاغية أَن يحكم شعبًا حرًّا وأَبيًّا ما لم يكن في حرّية ذلك الشعب شيء من الاستبداد، وفي إبائه شيء من الذلّ؟

أو يكن ما تبتغون طرحه عنكم همًّا من الهموم فاذكروا أَن ذلك الهمّ لم يُفرَضْ عليكم فرضًا، بل أَنتم الذين اخترتموه لذواتكم.



أو يكن ما تسعون إلى الخلاص منه خوفًا من المخاوف، فلا تنسوا أَن مقرّ ذلك الخوف في قلوبكم وليس في يد الشبح الذي تخافونه.

حقًّا إنّ ما ترغبون فيه أو تخشـــونه، ومـــا تهوونه أو تمقتونه، وما تسعون إليه أَو تتهرّبون منه - إن كلّ هذه مقيمة فيكم، تتعانق نصف العناق لا كلّه،

وتتحرّك في كيانكم أزواجًا متلاصقة كما يتحرّك النور والظلّ.

حتّى إذا تلاشـــى الظلّ عاد النور الـــذي ابتلعه فأَصبح ظلًّا لنور آخر.

وهكـــذا حرّيتكم، فهي إذ تنعتق مـــن قيودها تعود فتغدو قيدًا لحرّية أكبر منها.



حينئذ عادت الكاهنة إلى الكلام فقالت:

حدّثنا عن العقل والهوى.

فأجابها وقال:

إنّ نفوسكم لساحات وغًى حيث تصطرع عقولكم وآراؤكم ضدّ أَهوائكم وشهواتكم.

ليته كان لي أَن أَحمل السلام إلى نفوسكم علّني أَستطيع أن أُحوّل النفور والخصام في عناصركم أَلحانًا منسجمة ووحدةً لا انفصال فيها.

ولكن، كيف يكون لي ذلك إلّا إذا كنتم أنتم أيضًا مصلحين ما بين ما اختلف من عناصركم، وإلّا إذا أَحببتم جميع تلك العناصر؟

إنّ عقلكم وهواكم هما الدفّة والشراع لنفسكم الماخرة عباب اليمّ.



وإذا ما تحطّمت الدفّة أو انمزق الشـــراع فأنتم إذ ذاك مقضيّ عليكم بأَن تتيهوا مع الموج، أَو أن تلزموا مكانًا واحدًا في عرض البحــر. لأنّ العقل، إذا تحكّم وحده فــي النفس، كان لها رباطًا. والهوى، ما لم يكن لــه وازع، التهم ذاته بذاته على حدّ ما تفعل النار سواء بسواء.

لذلك فلترفع النفس عقلكم إلى علوّ هواكم ليصبح في قدرته أن يغنّي،

ولتتدارك هواكم بالعقل كيما يتاح له أَن يحيا بانبعاثه يومًا بعد يوم، وأَن ينهض من رماده كالفينكس.

تمنّيت لــو تنظرون إلى عقلكم وهواكــم نظركم إلى ضيفين عزيزين في بيتكم.

فمــن الأكيد أنّكم لن تكرموا الواحد فــوق إكرامكم للآخر؛ لأنّكم إذا اهتممتم بالواحد دون الآخر خســرتم محبّة الاثنين معًا وثقتهما.

عندما تقيلون بين التلال، في الظلال الناعمة التي يطرحها الحَوْر الأَبيض، متمتّعين بســكينة الحقول والمروج البعيدة وطمأنينتها - عندئذٍ لتقل قلوبكم في صمتها: «إن الله لَيستريح في العقل».

وعندما تهبّ العاصفة، وتهزّ الريح العاتية جذور الأشجار في الغاب، ويعلن البرق والرعد عظمة السماء - عندئذ لتقل قلوبكم بخشوع ورهبة: «إن الله ليَتَحرك في الهوى».



وما دمتم نَفَسًا في فضاء الله، وورقة في غابته، فحريّ بكم أَنتم كذلك أَن تستريحوا في العقل وتتحرّكوا في الهوى.

أسئلة:

1. هل فضّل جبران العقل على الهوى؟ لماذا؟
2. فيمَ اختلف موقفه من الهوى عن مواقف غيره من المتصوّفين؟
3. كيف بيّن قدسية كلّ من العقل والهوى؟



وتكلَّمت امرأة فقالت:

حدّثنا عن الأَلم.

فأَجابها وقال:

إنّما الألم انشقاق القشرة التي تغلّف إدراككم.

وكما يتحتّم على النواة أن تنفلق كَيما يبدو قلبها للشمس، كذلك يتحتّم عليكم أن تعرفوا الأَلم.

فلو كان لقلوبكم أن لا تبرحها الدهشة من عجائب الحياة التي تكتنفكم في كلّ يوم لدهشتم للأَلم دهشتكم للفرح،

ولتقبّلتم فصول قلوبكم بمثل الرضى الذي ما برحتم تتقبّلون به فصول الحقول،

ولأَقمتم في شتاء أَحزانكم تترقّبون بطمأْنينة قدوم الربيع.

إنّكم تختارون الكثير من آلامكم.

وآلامكم تلك هي الدواء المرّ الذي يصفه الطبيب فيكم لأنفسكم المريضة.



لذلك عليكم أن تثقوا بطبيبكم، وأن تجرعوا الدواء الذي أعدّه لكم ساكتين وهادئين.

لأَن يده، وإن بدت ثقيلة وقاسية، فإنّما تطاوع في ما تعمل يدَ القدرة التي لا تدرَك ولا تُبصر.

ولأَنّ الكأْس التي يقدّمها لكم، وإن هي حرقت شفاهكم، فالطين الذي صُنعت منه هو الطين الذي بلّله الخزّاف الأَعظم بدموعه القدسيّة.

أسئلة:

1. ما قيمة الألم في رأي جبران؟
2. استخرج بعض الصور التي استخدمها ليوضح رأيه بواسطتها.



فقال رجل:

حدّثنا عن معرفة النفس.

فأَجابه وقال:

إنّ قلوبكم لتَعرف في سكينتها أَسرار الأَيّام والليالي.

ولكنّ آذانكم تتعطّش إلى سماع ما تعرفه قلوبكم.

فأنتم تصرّون علـــى أن تعرفوا بالـــكلام ذاك الذي عرفتموه دائمًا بالفكر.

إنّكم تريدون أَن تلمسوا بأَصابعكم أَجساد أَحلامكم العارية.

وجدير بكم أن تُصِرُّوا.

فالينابيع الخفيّة في نفوسكم لا بدّ لها من أَن تتفجّر وتنساب مهمهمةً نحو البحر؛

والكنـــوز التي في أَغواركم الســـحيقة تأْبى إلّا أن تنكشـــف لأَبصاركم.

ولكن حذار أَن تزِنوا كنوزكم الخفيّة في موازين.



وحذار أَن تحاولوا سبر أغوار معرفتكم بعصًا أَو بِحَبْل.

لأَنّ الذات بحر لا يُحَدّ ولا يقاس.

لا تقولـــوا: «لقد وجدتُ الحقيقة». بـــل قولوا بالأَحرى: «لقد وجدت حقيقة».

ولا تقولوا: «لقد اهتديت إلى طريق النفس». وقولوا بالأَحرى: «لقد رأَيت النفس تمشي في طريقي».

لأَنّ النفس تمشي في جميع الطرق.

والنفس لا تمشـــي على خطّ مـــن الخطوط، ولا هي تنمو نموّ القصبة،

ولكنّها تتفتّح كما تتفتّح زهـــرة النّيلوفر ذات التويجات التي لا تُعدّ.



عندها سأَله معلّم:

حدّثنا عن التعليم.

فأَجابه وقال:

ليس في مســـتطاع أَيّ إنســـان أَن يكشـــف لكم غير ما هجع نصف هجعة في فجر معرفتكم.

والمعلـــم الذي يتخطّر بين تبّاعه في ظل الهيكل لا يعطي من حكمته بل من إيمانه ومحبّته.

وهو إن يكن بحقّ حكيمًا فلن يدعوكم لتدخلوا بيت حكمته، بل يقودكم إلى عتبة الفكر الذي هو فكركم.

والفلكـــي إمّا حدّثكم عـــن فهمه للفضاء، فلن يســـتطيع أن يعطيكم فهمه.

والموسيقيّ قد يتغنّى أَمامكم بما في الفضاء من نبضٍ موقَّع، ولكنّـــه لا يقدر أن يعطيكـــم الأُذن التي تلتقـــط ذلك النبض ولا الصوت الذي يردّده.



والمتعمّـــق في علـــوم الأَعـــداد يمكنه أن يخبّركـــم عن دنيا الموازين والمقاييس، ولكنّه لا يستطيع أَن يقودكم إليها.

لأنّ إلهام الواحد منكم لا يعير جناحيه للآخرين.

وكما أَنّ كلًّا منكم يقف وحده في معرفة الله للكائنات، كذلك يجب أَن يستقلّ بمعرفته لله وبفهمه للعالم الأَرضيّ.

أسئلة:

1. لماذا ينفي النبي إمكانية التعليم؟
2. كيف يتوصّل الإنسان إلى المعرفة؟



وقال له فتًى:

حدّثنا عن الصداقة.

فأَجابه قائلًا:

إنّ صديقك هو حاجتك وقد انقضت.

هو الحقل الذي تزرعه بالمحبّة وتحصده بالشكران.

هو مائدتك والموقد الذي تصطلي بناره.

لأَنك تحمل إليه جوعك، وتسعى إليه لتحظى بالسلام.

عندما يفصح صديقك عمّا في فكره، فأَنت لا تخشى أَن تقول له «كلّا»، ولا أَنت تمسك عنه كلمة «نعم».

وعندما يكون صامتًا، فقلبك لا ينفكّ يصغي إلى قلبه.

لأنّه حينما كانت الصداقة، فجميع الأفكار والرغبات والآمال تولد وتُقتسَم بفرح يأتي الصديقين دونما سابق إعلان.

وإذا افترقتَ عن صديقك فلا تحزن،



لأَنّ ما أَحببته فيه فوق كلّ شيءٍ آخر ينجلي لك أَكثر فأَكثر في بعده عنك. مثلما ينجلي الجبل من السهل لمن شاء أَن يتسلّقه.

ليكن خيرُ ما عندك لصديقك.

وإذا كان لا بـدّ له مـن أَن يعرفك وأَنت فـي حالة الجزر، فليعرفك كذلك وأَنت في حالة المدّ.

وهل الصديق للتسلية فتسعى إليه في ساعة الضجر لقتل الوقت؟

بل اذهب إليه دائمًا لتحيا وإيّاه ساعاتٍ مليئة بالحياة.

لأنّه ما كان صديقًا ليملأ فراغك، بل ليقضي حاجتك.

وإذا اجتمعت بصديقك فلتكن حلاوة الصداقة مبعثًا للضحك واقتسام المسرّات.

لأَنّ القلب ينتعش ويجد صباحه في ندى الزهيد والصغير من الأَشياء.



ثمّ سأَله عالِم:

حدّثنا عن الكلام.

فأَجابه وقال:

إنّكــم تتكلّمون عندمــا ينقطع حبــل الســلام بينكم وبين أفكاركم.

وعندما يتعذّر عليكم أن تســكنوا في وحدة قلوبكم، تسكنون في شفاهكم، فيكون لكم من الأصوات التي ترسلونها لَهْو وتسلية.

وأَنتم في الكثير من أحاديثكم إنّما تقضون، أو تكادون، على تفكيركم.

لأنّ الفكر أشبه ما يكون بطائر في الفضاء. فإذا سجنتموه في قفص من الكلام بقي في مستطاعه أن يبسط جناحيه، ولكنّه تعذّر عليه أن يطير.

هنالك الذين يسعون منكم في طلب المتكلّمين لأنّهم يخشون أن يبقوا مع أنفسهم وحيدين.



لأنّ سكينة الوحدة تكشف لأبصارهم ذواتهم العارية. ولذلك يلوذون بالهرب.

وهنالك الذين يتكلّمون، ولكنّهم عن غير قصدٍ أو وعيٍ منهم ينطقون بحقائق هم أنفسهم لا يفهمونها.

وهنالك الذين انطوت الحقيقة في داخلهم، وهم يعرفونها ولكنّهم لا يتكلّمون بها.

إنّ في صدور هؤلاء يقيم الروح في سكينة تختلج بنبض الحياة.

عندما تلاقون صديقًا في الطريق، أو في السوق، فليحرّك الروح شفاهكم وليوجّه لسانكم.

دعوا الصوت الذي في صوتكم يكلّم الأُذن التي في أُذنه، لأنّ نفسه ستحتفظ بحقيقة قلبكم. كما تحفظ الذاكرة طعم الخمر،

من بعد أن تنسى لونها، ومن بعد أن يفنى الوعاء الذي ضمّها.



ثم تكلّم فَلَكيّ فقال:

ما قولك في الزمان؟

فأَجابه:

إنّه ليروقكم أن تقيسوا الزمان الذي يتعدّى كلّ قياس، مثلما يروقكم أن تكيّفوا سلوككم وتحدّدوا اتّجاه أرواحكم بمقتضى الساعات والفصول.

ويروقكم كذلك أن تجعلوا من الزمان نهرًا تجلسون على ضفافه وترقبون اندفاعه.

إلّا أنّ ما لا يتقيّد فيكم بزمان لَيَعرف أنّ الحياة لا يحصرها زمان،

ويعرف أنّ أمس ليس سوى ذكرى اليوم، وأنّ الغد ليس سوى حلم اليوم،

وأنّ ما يغنّي ويتأمّل فيكم لا زال ضمن تلك اللحظة.

من منكم لا يشعر أنّ مقدرته على الحبّ لا تُحدّ؟



ومَن لا يشعر أنّ ذلك الحبّ الذي لا يُحَدّ ينحصر في محور كيانه، ويتنقّل به من فكرة في الحبّ إلى أخرى، ومن صنيع يفرضه الحبّ إلى صنيع مماثل؟

أليس الزمان كالحبّ، لا يتقسّم ولا يُقاس بالخطوات؟

إلّا أنكم ما دمتم مُجبرين على تقسيم الزمان في أفكاركم إلى فصول؛ فَلْيلفَّ كلٌّ فصلٍ من فصولكم باقي الفصول،

ولْيلـفَّ حاضركُم ماضيَكم بالذكرى، والمستقبل بالشوق والحنين.



وقال له أحد شيوخ المدينة:

حدّثنا عن الخير والشرّ

فأَجابه:

أستطيع أن أحدّثكم عن الخير فيكم أمّا عن الشرّ فلا.

إذ ما هو الشرّ إن لم يكن الخير بعينه وقد بَرّح به عطشه وجوعه؟

حقًّا إنّ الخير إذا جاع فتّش عمّا يأكله في المغاور المظلمة، وإذا عطش شرب المياه الآسنة.

أنتم أخيار ما دمتم غير منقسمين على ذواتكم.

بل إنّكم، حتّى وإن انقسمتم على ذواتكم، غير أشرار.

لأنّ البيت المنقسم على ذاته لا يصبح حتمًا مغارة لصوص بل يبقى بيتًا منقسمًا على ذاته.

والمركب الذي بغير دفّةٍ قد يتيه مع الموج بين الجزر المحفوفة بالمخاطر ولكن من غير أن يغرق إلى القاع.

وأنتم أخيار عندما تعطون من ذواتكم.



ولكنّكم لستم بأشرار إذا ما طلبتم الربح لأنفسكم.

لأنّكم عندما تطلبون الربح فشأنكم في ذلك شأن الجذور تلتصق بالأرض لتمتصّ من ثديها الغذاء.

من الأكيد أنّ الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذر: «كن مثلي، ناضجًا ومليئًا بالحلاوة، وأعطِ أبدًا من بحبوحتك بغير حساب».

لأنّ العطاء حاجة من حاجات الثمرة، مثلما الأخذ حاجة من حاجات الجذر.

ثمّ إنّكم أخيار عندما تزِنون برويّةٍ كلّ ما تنطقون بهِ،

ولكنّكم لستم أشرارًا عندما تتعثّر ألسنتكم في المنام على غير روية ولِدونما غاية.

حتّى إنّ النطق المتعثّر قد يكون مقوّيًا للسّان الضعيف.

وأنتم أخيار عندما تمشون إلى الهدف بخطى ثابتة وجريئة، ولكنّكم لستم أشرارًا عندما تَعْرجون إلى الهدف عَرْجًا. حتّى العُرج لا يمشون إلى الوراء.

أمّا أنتم أيّها الأقوياء وسريعو الخطى فحذار أن تعرجوا أمام العُرْج ظنًّا منكم أنّكم بذلك تظهرون عطفكم عليهم.

إنّكم أخيار في مظاهر لا تُحصى، ولستم أشرارًا حتّى وإن لم تكونوا أخيارًا.

بل إنّكم إذ ذاك تبطئون في السير وتتبالدون.

أسفاه أن لا يقدر الظَّبي أن يعلِّم السلحفاة السرعة!



إنّ خيركم لَفي حنينكم إلى ذاتكم الجبّارة؛ وذلك الحنين ليس بغريب عن أيّ منكم.

إلّا أنّ ذلك الحنين سيل جارف في بعضكم يحمل إلى البحر أسرار التلال وأناشيد الغاب،

وفي الآخر ليس أكثر من جدول ضَحْلٍ يتلوّى وينعطف ويتباطأ في سيره قبل أن يدرك الشاطئ.

ولكن حذار أن يقول أخو الحنين الكبير إلى أخي الحنين الصغير: «ما بالك تتباطأ وتتردّد في سيرك؟».

لأنّ الأخيار حقًّا لا يسألون العراة: «أَين ثيابكم؟».

ولا الذين لا مأوى لهم: «ماذا حلَّ ببيوتكم؟».



عندئذٍ قالت كاهنة:

كلِّمنا عن الصلاة.

فأجابها وقال:

أنتم تصلّون في الشدّة وعند الحاجة. ويا ليتكم كنتم تصلّون وأنتم في قمّة الفرح وفي منتهى الرخاء.

وهل الصلاة إلّا أن تتمدّد ذواتكم في الأثير الحيّ؟

وإذا كان يرفّـه عنكـم أن تُريقـوا ظلامكم فـي الفضاء فإنه ليبهجكم كذلك أن تريقوا فجر قلوبكم.

وإذا كنتم لا تتمالكون عن البكاء كلّما دعتكم نفوسـكم إلى الصلاة، فلتحثّكم تلك النفوس، وإن بكت، على التعمّق والتمادي في الصلاة حتّى تنتهوا منها ضاحكين.

إنّكم فـي الصلاة ترتفعون لتلتقوا فـي الفضاء بجميع الذين يصلّون في تلك الساعة، والذين قد لا تلتقون بهم إلّا في الصلاة.



فلتكن زيارتكم لذلك الهيكل غير المنظور لا لسببٍ إلّا لتجعلوا منها داعيًا للنشوة الروحية وللتعارف الطيّب.

لأنّكم إذا دخلتم الهيكل بقصد الاستعطاء لا أكثر فلن تحصلوا على شيء.

أو دخلتموه لتُذِلّوا نفوسكم فلن تخرجوا منه مرفوعي الرؤوس.

حتّى وإن دخلتموه لتستجدوا للغير فلن يسمع استجداءكم أحد.

حسبكم من الهيكل غير المنظور أن تدخلوه.

ليس لي أن أعلّمكم كيف تصلّون بالكلام.

فالله لا يصغي إلى ما تقولون إلّا إذا قاله هو نفسه بشفاهكم.

وليس في مستطاعي أن أعلّمكم صلوات البحر والغاب والجبل.

أمّا أبناء البحار والغابات والجبال فإنّهم لواجدون تلك الصلوات في قلوبهم.

ولو أنّكم أصغيتم في سكينة الليل لسمعتم البحار والغابات والجبال تصلّي في صمتها هكذا:

«يا إلهنا الذي هو ذاتنا المجنّحة. إنّنا بإرادتك التي فينا نريد.

«وبرغبتك التي فينا نرغب.

«وباندفاعك الذي فينا نندفع لنحوّل ليالينا، التي هي لك، نهاراتٍ هي لك أيضًا.



«إنّنا لا نملك أن نسألك شـيئًا. لأنّك تعرف حاجاتنا قبل أن تتولّد فينا.

«أنت حاجتنا. إذا ما زدتنا من ذاتك فقد أعطيتنا كلّ شيء».

أسئلة:

1. أيّ دور تلعب الصلاة؟
2. كيف يتّضح إيمان جبران بوحدة الوجود في هذا الفصل؟



حينئذ تقدّم منه ناسك كان يهبط المدينة مرّةً في السنة وقال له:

كلّمنا عن اللذّة.

فأجابه وقال:

إنّما اللذة نشيد من أناشيد الحرّية،

ولكنّها ليست الحرية،

وهي أزهار رغباتكم،

وليست الثمار.

وهي غورٌ يتطلّع إلى قمّة،

وليست الغور ولا القمّة.

وهي الطائر المقفوص وقد بسط جناحيه،

ولكنّها ليست الأجنحة التي تلفّ الفضاء.

أجل. إنّ اللـذّة، في الواقع، لنشيد من أناشيد الحريّة.

وإنّه يسرّني أن تنشدوا ذلك النشيد بملء قلوبكم. إلّا أنّني لست أريدكم أن تُضيّعوا قلوبكم في الإِنشاد.



البعض من شــبّانكم يفتّش عن اللذّة كما لو كانت كلّ شيء.
وأنتم لذلك تدينونهم وتؤنّبونهم.

أمّا أنا فلا أدينهم ولا أُؤنِّبهم. بل أريدهم أن يفتّشوا.

لأنّهم سيجدون اللذّة، ولكنّهم لن يجدوها وحدها.

فللّذة ســبع أخوات. وأصغرهن قــدرًا لأجمل من اللذّة بما لا يُقاس.

أما سمعتم عن الرجل الذي كان يحفر الأرض بغية الحصول على بعض الجذور فإذا به يحظى بكنز؟

وفريق من شــيوخكم يتذكّرون ملذّاتهم نادمين كما لو كانت ذنوبًا اقترفوها وهم في حالة السكر.

ولكنّ الندم يُظلم الفكر ولا يؤدّبه.

وكان الأحرى بهم أن يذكروا ملذّاتهم شاكرين، مثلما يذكرون حصاد الصيف.

أمّا إذا كان لهم في الندامة بعض التعزية، فليتعزّوا بالندامة.

وبينكم الذين ليسوا بالفتيان ليفتّشوا، ولا بالشيوخ ليتذكّروا؛

بل إنّهم يخشون التفتيش والتذكار إلى حدّ أنّهم يتحاشون كلّ لذّة مخافة أن يهملوا الروح أو أن يسيئوا إليه بشيء.

أولئك لذّتهم في إعراضهم عن اللذّة.

فهم كذلك يعثرون على كنوز إذ يبحثون عن الجذور بأيدٍ مرتجفة.

ولكن أخبروني: مَنْذا الذي يستطيع أن يسيء إلى الروح؟



أيستطيع البلبل أن يسيء إلى سكينة الليل، أو الحباحب إلى النجوم؟

أم يستطيع اللهيب والدخان أن يُثقلا الريح؟

أتحسبون الروح بِرْكةً هادئة تستطيعون أن تحرّكوا الماء فيها بعصاكم؟

كثيرًا ما تحرمون أنفسكم لذّة ولكنّكم بذلك تختزنون الشهوة في زاوية من زوايا كيانكم.

ومَن يدري إذا كان ما تهملونه اليوم لا يعود فيترصّدكم في الغد؟

حتّى أجسادكم تدرك ميراثها وحقوقها الشرعية فلا تنخدع.

وأجسادكم هي قيثارة نفوسكم،

ولكم أن تستخرجوا منها موسيقى عذبةً أو أصواتًا مشوّشة.

وكأنّي بكم تتساءلون الآن في ضميركم: «كيف لنا أن نميّز بين ما هو خير في اللذّة وبين ما ليس خيرًا؟».

أَلا امضوا إلى حقولكم وبساتينكم وهناك تتعلّمون أنّ لذّة النحلة إنّما هي في جني الشهد من الزهر،

ولكنّها في الوقت ذاته لذّة الزهرة أن تتخلّى عن شهدها للنحلة.

فالزهرة للنحلة هي فوّارة حياة،

والنحلة للزهرة رسول محبّة،

وعطاء اللذّة وأخذها لكلتيهما حاجة ونشوة.

يا أهل أورفليس، كونوا في ملذّاتكم كالنحل والأزهار.



وتكلَّم شاعر فقال:

حدّثنا عن الجمال.

فأجابه قائلًا:

أين عساكم تفتّشــون عن الجمال وكيف تجدونه ما لم يكن الجمال عينه هاديكم وطريقكم؟

وكيف تحدّثون عنه إلّا إذا كان هو بذاته ناسجًا للحديث؟

إنّ الذين أحاق بهم أسًــى أو نزل بهم ضرر يقولون: «الجمال رفيقٌ ولطيف،

وهو يمشي بيننا كما تمشي الأُمّ الفتية وكأنّها تخجل بمجدها مجد الأُمومة».

وأهل الهوى بينكم يقولون: «كلّا. بل الجمال شيء عاتٍ ورهيب،

فهو كالعاصفة يهزّ الأرض من تحتنا، والسماء من فوقنا».

أمّا المتعبون والذين بهم ملل فيقولون: «الجمال هَمْس لطيف نسمعه بأرواحنا.



وصوته يمتثل لسكوتنا امتثال النور الضئيل الذي يرتعش خوفًا من الظلّ».

أمّا القلقون فيقولون: «لقد سمعنا صراخ الجمال في الجبال، ومع صراخه سمعنا وقع حوافر، وخفق أجنحة، وزئير أسود».

وفي الليل يقول حرّاس المدينة: «إنّ الجمال سينهض مع الفجر من المشرق».

وعند الظهيرة يقول العمّال وأبناء السبيل: «لقد رأينا الجمال يُطلّ على الأرض من نوافذ المغرب».

وفي الشتاء يقول الذين سدَّت الثلوجُ عليهم المسالك: «سيأتي الجمال مع الربيع وهو يقفز على التلال».

وفي هجيرة الصيف سيقول الحاصدون: «إنّا رأينا الجمال يرقص مع أوراق الخريف، وأبصرنا ركامًا من الثلج في شعره».

كلّ ذلك قلتموه في الجمال،

ولكنّكم، في الواقع، ما كنتم تتكلّمون عنه بل عن حاجات في نفوسكم لا زالت غير مقضيّة.

لأنّ الجمال ليس حاجةً بل هو نشوة.

إنه ليس فمًا ظَمِئًا، ولا يدًا فارغة مبسوطة،

ولكنّه قلب ملتهب ونفس مسحورة.

ولا الجمال الصورة التي تودّون لو تبصرونها، أو الأُنشودة التي تتمنّون لو تسمعونها.



بل هو بالأحرى صـــورة تبصرونها وأعينكم مطبقة، ونشـــيد تسمعونه وآذانكم مغلقة.

ولا الجمال عصارة تمشـــي في لحاءٍ ممزّق، أو جناح شُـــدّ إلى مخلب،

إنّه جنّة مزهرة أبدًا، وسرب من الملائكة في طيران مستمرّ.

يا أهل أورفليس! إنّما الجمال الحياة وقد نزعت الحجاب عن وجهها القدّوس،

ولكن أنتم الحياة والحجاب.

وإنّما الجمال الأبديّة محدّقة إلى وجهها في المرآة،

ولكن أنتم الأبدية والمرآة.



ثمّ تكلّم كاهن مسنّ فقال:

حدّثنا عن الدين.

فأَجابه قائلًا:

أَلعلّني تكلمت اليوم إلّا عن الدين؟

أَليس الدين كلّ ما نعمله وما نفكّر به،

وذلك الذي ليس بالعمل ولا بالفكر، بل هو اندهاش وانذهال يتفجّران أَبدًا من القلب حتّى ساعة تقطع اليد الحجر أو تهتمّ بالنول؟

مَنْذَا يستطيع الفصل ما بين إيمانه وأَعماله، أَو ما بين معتقده ومهنته؟

أَو مَنْذَا يستطيع أن يبسط ساعاته أَمامه ثمّ أَن يقول: «هذه الساعة لله، وهذه لي. أَو هذه لنفسي، وتلك لجسدي»؟

إنّ جميع ساعاتكم لأجنحة تشقّ الفضاء من الذات وإلى الذات.

والذي يلبس الفضيلة نظير ما يلبس خير رداءٍ عنده لإنسانٌ عريان، ولن تخترق الريح ولا الشمس جِلده.



والذي يتقيّـــد في سلوكه بما يفرضه عليه أَدب السلوك إنّما يسجن طائره الغرّيد في قفص.

والأُغــرودة الحــرَّة لا تنطلق مــن خلال أَســلاك الأقفاص وقضبانها.

والــذي عنده العبادة نافذة تُفتح وتُغلق عند الحاجة لم يدخل بعدُ بيت نفسه حيث النوافذ مشرّعة من الفجر حتّى الفجر.

إنَّ لكم في حياتكم اليومية لَهيكلًا ودينًا.

وكلّما دخلتم ذلك الهيكل خذوا معكم جميع ما تملكون:

خذوا المحراث والكور والمطرقة والقيثارة،

تلك الأشــياء التي صنعتموها ســواء لقضاء حاجة أَم لمجرّد الاغتباط بصنعها.

لأنّكم في تخيّلاتكم لا تستطيعون أَن ترتفعوا فوق انتصاراتكم، ولا أَن تنحدروا إلى ما دون إخفاقكم.

وخذوا معكم إلى الهيكل كلّ الناس:

لأنّكم، في عبادتكــم، لن تحلّقوا أَبعد من آمالهم، ولن تُذلّوا نفوسكم إلى درجة أحطّ من يأْسهم.

إن شــئتم أَن تعرفــوا الله فــلا تحصروا اهتمامكــم في حَلّ الأحاجي.

بل الأحــرى أن تنعموا النظر في ما هــو حواليكم، وإذ ذاك تبصرون الله يلعب مع أَولادكم.



انظروا إلى الفضاء تبصروه يمشـــي في الغمامة باسطًا ذراعيه في البرق، وهابطًا إلى الأرض مع المطر.

وانظروا إلى الأرض تروه يبســـم في الأزاهر، ثمّ تروه يرتفع ويلوّح بيديه من أعالي الشجر.

أسئلة:

1. ما معنى قول النبي إنّ «الدين كلّ ما نعمله وما نفكّر به»؟
2. كيف انتقد سوء فهم الدين؟



عندئذ تكلّمت المطرة قائلة:

إنّا نسأَلك الآن عن الموت.

فأَجاب وقال:

تريدون أَن تعرفوا سرّ الموت.

ولكن أَنَّى لكم أن تجدوه ما لم تفتّشوا عنه في قلب الحياة؟

إنّ البومة المحجّبة عيناها بظلمة الليل لَعَمياء عن النهار. فهي لا تستطيع أَن تهتك الحجاب عن النور وسرّ النور.

إذا كنتم تريدون حقًّا أَن تبصروا روح الموت، فافتحوا أَبواب قلوبكم على مصاريعها لجسد الحياة.

لأَنّ الحياة والموت واحد، كما أَنّ النهر والبحر واحد.

إنّ معرفتكم الصامتة لما بعد الموت لَتَستقرّ في أَعماق آمالكم وأهوائكم.

ومثلما تحلم البذور التي تحت الثلج هكذا تحلم قلوبكم بالربيع.

أَلا ثقوا بأَحلامكم، لأَنّ فيها تختبئُ أَبواب الأَبديّة.



إنّ خوفكم من الموت لشبيه بالرجفة التي تستولي على الراعي أمام مليكه وقد جاء يقلّده وسامًا.

أَليس يغتبط الراعي، برغم رجفته، لأنّه سيحمل شارة الشرف من الملك؟

ولكنّه، مع ذلك، لا يستطيع إلّا أن يفكّر في رجفته قبل تفكيره في الشرف الذي سيناله.

وهل الموت إلّا أَن يقف الإنسان عاريًا في الريح، وأن يذوب في الشـــمس؟ وهل انقطاع النَّفَس غير إعتاقه من قلق مدّه وجزره كيما يتاح له أَنْ يرتفع إلى أَعلى وأَن يتمدّد ويسعى إلى الله طليقًا من كلّ قيد؟

إنّكم لن تنشدوا خير إنشادكم إلّا إذا شربتم من نهر الصمت.

ولن تباشروا تسلّق الجبل إلّا من بعد أَن تدركوا القمّة.

ولن ترقصوا حقًّا إلّا من بعد أَن تضمّ الأرض أعضاءكم.

وأَقبل المساء فقالت المطرة:

«تبارك هذا النهار، وهذا المكان، وتبارك روحك الذي كلّمنا».

فأَجابها: «ألعلّ الذي تكلّم أنا؟ أَلم أَكُ سامعًا كذلك؟».

قال ذلك وانحدر من على درج الهيكل وتبعه الشـــعب. وإذ أَدرك سفينته وقف على ظهرها.

ثمّ التفت إلى الجمع ثانية، ورفع صوته وقال:

يا أهل أورفليس، إنّ الريح لتأْمرني بالانصراف عنكم.



ولا بُـدّ لي من الانصراف، وإن لم يكن بي من العجلة مثلما في الريح.

إنّنا نحن معشـر الهائمين الناشـدين أبدًا الطرق المقفرة من الرفاق، لا نبدأ يومًا حيث ودّعْنا يومًا أَسـبق. ولا يجدنا شـروق حيث يتركنا غروب.

ونحن نحثُّ الخطى حتّى حينما تهجع الأرض.

نحن بذور نبات عنيد، ولا تتسلّمنا الريح وتذرونا إلّا من بعد أَن يتمّ نضجنا وتمتلئ قلوبنا.

قصيرةً كانت أيّامي بينكم، وأَقصر منها كلماتي.

ولكن إذا تلاشـى صوتي في آذانكم، واضمحلَّ حبّـي من ذاكرتكم، فإنّني أَعود إليكم ثانية،

وإذ ذاك أُكلّمكم بقلب ازداد غنًى، وبشفتَين أَكثر طواعية للروح.

أَجل. سأَعود مع المدّ.

وسأَسـعى لاكتساب فهمكم حتّى وإن أَخفاني الموت عنكم، ولفَّتني السكينة العظمى بجلبابها.

ولن يذهب سعيـي جزافًا.

إن يكن في ما قلته لكم شـيء من الحقّ فذلك الحقّ سيعلن ذاته بصوت أكثـر جلاء من صوتي اليـوم، وبكلمات أَقرب إلى مداركـكم.



إنّني ذاهب مع الريح، يا أَهل أُورفليس، ولكن لا لأنحدر إلى فراغ العدم. وهذا النهار، إن لم يكن تحقيقًا لرغباتكم ومحبّتي، فليكن عهدًا حتّى يجيء يوم آخر.

تتغيّر حاجات الإِنسان. ولكنّ حبّه لا يتغيّر، ولا رغبته في أَن يقضي الحبُّ حاجاته.

إذن فاعلموا أَنّني سأَعود إليكم من صميم السكينة العظمى.

فالضباب الذي ينحسر عن الأرض عند الفجر، تاركًا بعض الندى في الحقول،

يرتفع فيما بعد ليغدوَ سحابة ثمّ ليهبط على الأرض غيثًا.

وقد كنت شبيهًا بالضباب.

لقد طرقت شوارعكم في سكينة الليل، وولجت بروحي مساكنكم،

فكانت قلوبكم تنبض في قلبي، وأَنفاسكم تجري على وجهي، وقد عرفتكم جميعًا.أَجل. عرفت أوجاعكم وأفراحكم وكانت أحلامكم في الليل أَحلامي.

وكثيرًا ما وجدتني بينكم كالبحيرة بين الجبال.

فكنت أَعكس قممكم وسفوحكم، حتّى وقطعان أفكارهم ومشتهياتكم.

ولَكَم ضجَّ سكوتي بقهقهة أولادكم، وانسابت فيه أشواق فتيانكم وفتياتكم انسياب النهر في السهل.



فما انفكَّت تغنِّي حتّى من بعد أَن بلغت أَعماقي.

بل لقد جاءني منكم ما هو أَعــذب من الضحك وأَعظم من الشوق والحنين.

ذلك هو غير المحدود فيكم،

هو الإِنسان الشاسع والبعيد الغور الذي لستم في جسده سوى خلايا وعضلات،

ذلك الإِنسان الذي ليست كلّ أَناشيدكم سوى نبضات صامتة في أُنشودته،

والذي من رحابته ومداه رحابتكم ومداكم،

والذي أَبصرته فيكم فأَحببتكم.

وهل للحبّ أن يبلغ مدى لا ينطوي عليه مدى الإِنسان الرحب؟

أَم هــل لأيّ رؤى، أَو آمال، أَو اعتداد بالنفس أَن تحلّق أَبعد من ذلك المدى؟

والإِنسان الشاســع فيكم يشبه ســنديانة عتيّة مكسوّة بأَزهار التفّاح.

فقُدرته تشــدّكم إلى الأرض. وشــذاه يرفعكــم إلى الفضاء. وصلابته وصموده للعناصر يكفلان لكم الخلود.

قيل لكم إنّكم كالسلسلة، وإنّكم ضعفاء كأَضعف حلقة فيكم.

ذلك نصف الحقيقة. أَمّا نصفها الثاني فهو أَنّكم أَقوياء كأَقوى حلقة فيكم.



والذي يقيسكم بأَصغر عمل من أَعمالكم كالذي يقيس البحر بما في زبده من وهن.

والذي يدينكم بسقطاتكم كالذي يدين الفصول بتقلّباتها.

أجل. أنتم كالمحيط.

ولئن اكتظّت شواطئكم بالسفن المشحونة، العالقة بالرمال، والتي ترتقب المدّ لينتشلها، فليس لكم أَن تعجّلوا ساعات مدّكم.

وأَنتم كالفصول كذلك،

ولئن أَنكرتم في شقائكم الربيع،

إلّا أَنّ الربيع الهاجع فيكم لَيبسم في نعاسه لكم ولا يحسب إنكاركم له إهانة.

لا تظنّوا أَنني أَقول ما أَقوله فيكم كيما يقول واحدكم للآخر: «إنّه يمدحنا. وإنّه لم يبصر غير الخير الذي فينا».

إنّما أُخاطبكم بالكلام عمّا تفقهونه أَنتم بغير كلام.

وما هي المعرفة التي نعبّر عنها بالكلام إن لم تكن المعرفة التي بغير كلام؟

إن أَفكاركم وكلماتي لأمواج من ذاكرة مختومة انطبعت فيها كلّ سجلات أَمسنا،

وسجلّات الأَيّام السحيقة في القِدَم عندما لم يكن للأَرض علمٌ بنا ولا بذاتها،

وسجلّات الليالي التي فيها تكوّنت الأَرض من الخواء.



لقد جاءكـــم حكماء ليعطوكم من حكمتهم. أَمّا أَنا فقد جئت لآخذ من حكمتكم.

وها أنا قد وجدت عندكم ما هو أَعظم من الحكمة:

لقد وجدت فيكم روحًا كأنّه اللهب، وهو أَبدًا يمتدّ وينمو في ذاته ومن ذاته،

في حين أَنتم، غير آبهين بامتداده، تندبون أَيّامكم الذاوية.

إنّها الحياة تسعى إلى الحياة بأَجساد تخشى الموت.

ولكن لا قبور ههنا.

فهذه الجبال والسهول ليست سوى مهدٍ ونقطة انطلاق.

كلَّما مررتم بحقل دفنتم فيه أَسلافكم تأَمّـــلوه جيّدًا. وعندئذٍ تبصرون أَنفسكم وأَولادكم وقد تشابكت أَيديكم في الرقص.

حقًّا إنّكم كثيرًا ما يأْخذكم الهرج والمرج وأَنتم لا تعلمون.

وجاءكم آخرون فما وهبتموهم أكثر من ثروة وســـلطان وجاه لقاء ما بذلوه من وعودٍ لإيمانكم.

أَمّا أَنا فالذي بذلتـــه لكم كان أَقلّ من وعد، وكنتم مع ذلك، أوفر سخاء نحوي.

لقد أَعطيتموني عطشي الأكبر إلى الحياة.

وهل من عطيّةٍ يُنفح بها إنســـان أَعظـــم من تلك التي تجعل من جميع غاياته شـــفتين يحرقهما العطش، ومن كلّ حياته ينبوعًا لا ينضب؟



وإنّما فخري وثوابي لَفي أَنّني كلّما دنوت من الينبوع لأُطفئ عطشي وجدت مياهه عَطْشى،
فتشربني إذ أَنا أَشربها.
لقد خالني بعضكم متكبّرًا وشديد الحياء فلا أَتقبّل من أَحد هديّة.
أَجل. إنّني من الأَنفة بحيث لا أَرضى أَن أَتناول أُجرةً. ولكنّني لا أَرفض الهديّة.
وأَنا، وإن اقتتّ بالثمار البرّية بين التلال أَيّام كنتم تودّون لو أَجلس وإيّاكم إلى موائدكم،
وإن نمتُ في رواق الهيكل وكنتم تؤثرون لو أَنام في أَسرَّتكم،
إلّا أنّ اهتمامكم البالغ بأَيّامي ولياليَّ جعل الطعام حلوًا في فمي، ومَنْطَق نومي بالرؤى.
لأَجل هذا أُباركّكم:
لأَنّكم تعطون الكثير ولا تعرفون أنّكم تعطون شيئًا على الاطلاق.
حقًّا إنّ العطف الذي ينظر إلى نفسه في المرآة لعطف ينقلب حجرًا.
وكلّ عمل صالح يعلن عن ذاته بأَسماء عذبة لا يُنجب إلّا اللعنة.
ودعاني بعضكم أخا انفراد وعزلةٍ وقد أَثملَتْه وحدته.
فقال ذلك البعض: «إنّه رجل يعقد المؤتمرات مع الشجر في الغاب، لا مع الناس.



«وهو يجلس وحده على قنن التلال وينظر إلى مدينتنا من عل».
وأَنا في الواقع كنت أَتسلَّق التلال وأَسير في الأَماكن البعيدة.
وكيف كان لي أن أُبصركم إلّا من علوٍّ شاهق ومن مسافة بعيدة؟
وكيف لأَيّ إنسان أَن يكون قريبًا إلّا إذا كان بعيدًا؟
وآخرون كانوا ينادونني بغير كلام ويقولون:
«أَيّها الغريب الهائم بالأَعالي التي لا تدرك، لماذا تسكن القمم حيث النسور تبني أَوكارها؟
«لماذا تطلب ما لا يُدْرَك؟
«وأَيّ العواصف ترجو أَن تصطاد بشباكك؟
«وأَيُّ الطيور الأثيريّة تسعى لاقتناصها في السماء؟
«تعال وكن واحدًا منّا.
«انزل من علائك وأَشبع جوعك من خبزنا، وأَطفئ عطشك من خمرنا».
هكذا كانوا يقولون في عزلة نفوسهم.
ولو أَنَّ عزلتهم كانت أَبعد غورًا لأدركوا أَنّني كنت أُفتّش عن السرّ في أَفراحكم وآلامكم،
وكنت أَصطاد ذواتكم الكبرى التي ترود السماء.
إلّا أَنّ الصيَّاد كان الطريدة كذلك.
لأنّ الكثير من سهامي ما انطلق من قوسي إلّا ليعود إلى صدري.
والذي كان يحلِّق في الفضاء هو الذي كان يزحف على الأرض.



لأنّني إذ كنت أَبســط جناحيّ في الشمس، كان ظلّي سلحفاةً على التراب.

وأَنا المؤمن كنت المشكّك أيضًا.

لأَنّني كثيرًا ما وضعت إصبعي في جرحي كيما يتعاظم إيماني بكم وتتّسع معرفتي لكم.

وها أنا أَقول لكم بهذا الإِيمان وتلك المعرفة:

إنّكم أَعظم من أَن يحصركم جسد، وأَرحب من أَن يستوعبكم مسكن أو حقل.

فالذات التي هي أَنتم تسكن أَعلى من الجبال وتطوف مع الريح.

وما هي بالمخلوق الذي يدبّ في نور الشــمس طلبًا للدفء.

أَو يحفر الأنفاق في الظلام طلبًا للأمن والسلامة.

ولكنّها شيء طليق. إنّها لَروحٌ يغلّف الأرض ويجري في الأثير.

إن يكن كلامي هذا غامضًا، فلا تحاولوا أَن تجعلوه صريحًا.

فبداية كلّ شيء غامضة وغائمة. أَمّا نهايته فلا.

وإنّه ليسرّني أَن تذكروني كبداية.

فالحياة وكلّ ما فيها تنشأُ في الضباب وليس في البلّورة.

ومن يــدري، فقــد لا تكون البلّــورة غير ضبــاب في طور الانحلال؟

إنّي أودّكم، إذا ما ذكرتموني، أن تذكروا ما سأَقوله الآن لكم:



اذكروا أنّ ما يبدو لكم كما لو كان أَضعف ما فيكم وأَشدّه حيرة لَهُو في الواقع أَقوى ما فيكم وأَصلبه عودًا.

أَليس أَنَّ نَفَسكم هو الذي شاد وشدَّد عظامكم؟

أَليس أَنَّ حلمًا لا يَذكر أَحدٌ منكم أَنَّه حَلِمه هو الذي بنى مدينتكم وكوَّن كلّ ما فيها؟

وأَنتم لو كان لكم أن تسمعوا همس ذلك الحلم لما سمعتم أيّ صوت عداه.

ولكنّكم لا تبصرون ولا تسمعون. ومن الخير أَن يكون الأمر كذلك.

فالحجاب الذي على عيونكم سترفعه في النهاية اليد التي حاكته،

والطين الذي يسطم اليوم آذانكم ستخرقه اليد التي جبلته؛

وعندئذٍ تبصرون،

وعندئذٍ تسمعون،

وإذا ذاك لن تحزنوا لأنّكم كنتم عميانًا، ولن تأْسفوا لأنّكم كنتم صُمًّا.

لأنّكم في اليوم الذي فيه تبصرون وتسمعون ستنكشف لكم الغايات الخفيّة في كلّ شيء،

وستباركون الظُّلمة كما تباركون النور.



ومن بعد أنْ فاه بهذه الأشياء التفت حواليه فأَبصر ربّان سفينته واقفًا بجانب الدفّة وهو يرسل نظراته آنًا إلى الشراع وأونة إلى الأُفُق البعيد.

فقال:

إنّ ربّان سفينتي لَصَبور وأَيّ صبور.

فالريح تهبّ، والشراع يضطَرب، حتّى الدفّة تطالب بيدٍ تديرها.

أَمّا هو فينتظر سكوتي بهدوءٍ وصبر.

وهؤلاء الملّاحون - ملّاحو سفينتي - الذين سمعوا جوقة البحر الأعظم - إنّهم كذلك سمعوني صابرين.

ولكنّهم لن ينتظروا بعد الآن.

فأَنا مستعدّ.

لقد بلغ الجدولُ البحر. وها هي أُمّه الكبرى تضمّه ثانية إلى صدرها.

الوداع يا أَهل أُورفليس.

لقد انتهى هذا النهار.

وهو ينغلق الآن علينا كما تنغلق زنبقة الماء على غدها.

إنّا سنحتفظ بما أُعطيناه ههنا،

وإن هو لم يكفنا، فعلينا إذ ذاك أَن نعود فنجتمع ثانية،

وأَن نبسط أَيدينا معًا إلى النهر.

لا يغربنّ عن بالكم أَنّي سأَعود إليكم.



هنيهةً بعد، ويعود حنيني فيجمع الطين والزبد لأجل جسد آخر.
هنيهةً بعد - لمحةَ استراحةٍ على الريح - وتلدني امرأَة أُخرى.
وداعًا يا أَهل أُورفليس، ويا شبابًا صرفته معكم.
أمس تلاقينا في الحلم.
لقد غنّيتم لي في وحدتي، وبنيت من أَشواقكم برجًا في السماء.
أَمّا الآن فقد هرب النوم منّا، وانتهى حلمنا، وفات وقت الفجر.
وهـــا نحن في الظهيرة، ويقظتنا التي كان نصفها ما يزال غفلةً قد اكتمل نهارها. وأَصبح لزامًا علينا أَن نفترق.
وإذا اتّفق لنا أَن نجتمع مرّة بعد في شَفَقِ الذكرى فسنتحدّث من جديد، وستُنشـــدونني أُنشـــودة أَعمق من كلّ ما أَنشدتمونيه حتّى اليوم.
وإذا اتّفـــق لأيدينا أَن تلتقي في حلم آخر فســـنبني برجًا آخر في السماء.
وإذ قـــال ذلك أَومأَ إلى البحّارة فرفعوا المرســـاة في الحال، وحلّوا السفينة من مرابطها وانطلقوا بها ووجهتهم المشرق.
فارتفع هتاف من الشعب وكأَنّه من قلبٍ واحد. وتلقّف الشفقُ الهتافَ وأَرسله فوق البحر كصوتِ أَبواق كثيرة.
ولم يبقَ صامتًا غير المطرة التي لبثت تحدّق إلى السفينة حتّى توارت في الضباب.



ومن بعد أَن تفرّق الجمع بقيت وحدها على الشـــاطئ وهي تردّد قوله:

وهنيهةً بعد - لمحةَ استراحة على الريح - وتلدني امرأَة أُخرى».

أسئلة:

1. ما معنى قول النبي: «إنّ الحيـــاة والموت واحد، كما أنّ النهر والبحر واحد أيضًا»؟
2. لماذا طلب إلينا أن نثق بالأحلام؟
3. إلام يرمز قوله إنّ موت الإنسان «وقوفه عاريًا في الريح وذوبانه في حرارة الشمس»؟
4. وما معنى قوله في آخر الكتاب: «هنيهة بعد – لمحة اســـتراحة على الريح – وتلدني امرأة أخرى»؟




مكتبة
الفكر الجديد

للمؤلف

الكتب العربيّة

الموسيقى، 1905

عرائس المروج، 1906

الأرواح المتمرِّدة، 1908

الأجنحة المتكسِّرة، 1912

دمعة وإبتسامة، 1914

المواكب، 1919

العواصف، 1920

البدائع والطرائف، 1923

الكتب المعرّبة

المجنون، 1918

السابق، 1920

النبيّ، 1923

رمل وزبد، 1926

يسوع ابن الإنسان، 1928

آلهة الأرض، 1931

التائه، 1932

حديقة النبيّ، 1933



جُبْران خَليل جُبْران

كاتب وفيلسوف وشاعر ورسّام لبنانيّ (1883-1931)، ولد في بلدة بشرّي شمال لبنان، وهاجر إلى الولايات المتّحدة. نجح في إثراء المكتبة العالميّة، وليس العربيّة فقط، عبر كتب أصبحت من كلاسيكيّات التراث الأدبيّ الإنسانيّ. عاش جبران قليلًا، وعاش حياة صعبة نهشها الفقر والمرض، لكنّه نجح في تبوّؤ مكانة عالمية. أسّس مع عدد من أدباء ومثقّفي المهجر «الرابطة القلمية»، في محاولة لبثّ روح التجديد في الأدب العربيّ.

النبيّ — رائعةُ جبران العالميّة، والغنِيَّة عن التعريف، التي ضمَّنَها، بِنفحَةٍ نثرِيَّةٍ، خُلاصةَ آرائه الفلسفيّة والروحيّة. تتناول أبوابُه الثمانية والعشرون مواضيعَ عميقةَ التجذُّر في النفس البشريّة، كالحبّ والزواج والأولاد والصداقة والحياة والموت...

في كلّ باب، حكمةٌ وبَصيرةٌ تسبُران أغوارَ المعاني والدَّلالات، وذلك بأسلوب جُبرانيّ يخطف الألباب بجماله وشفافيّته. هو خُلاصةُ الخُلاصة. «لقد شَغَلَ هذا الكتاب الصغير كلَّ حياتي. كنتُ أريد أن أتأكّد بشكل مطلق من أنّ كلَّ كلمة كانت حقًّا أفضلَ ما أستطيع تقديمَه»، قالَ جُبران. وبالفعل، تجاوزَت هذه التحفة الأدبيّة الكلاسيكيّة حدود الوقت والزمان، فتُرجمت من الإنكليزيّة إلى أكثرِ من خمسين لغة وبيعَت منها ملايين النُّسخ في العالم.



ISBN 978-9953-26-917-7

9 789953 269177

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان